# علّمتني سُورة الرحمٰن

جمع وإعداد
م. عامر كبّارة

علّمتني سُورة الرحمٰن

الطبعة الأولى

كل الحقوق محفوظة

صفر ١٤٤٠هـ - نوفمبر - تشرين الثاني ٢٠١٨م.

يوزع مجاناً عن روح المرحومين بإذن الله

الشيخ منير المقدم

السيدة ألهامه أديب

السيدة ربيحة المقدم

السيدة نسيبة المقدم

وصدقة جارية عن أرواح أموات جميع المسلمين والمسلمات

لبنان - طرابلس

www.3alamatnisurah.com
www.3alamatnisourat.com

# علّمتني سُورة الرحمٰن

جمع وإعداد
م. عامر كبّارة

بسم الله الرحمن الرحيم

# إهداء

إلى كلِّ مسلم ومسلمة..

إلى والدتي الكريمة -حفظها الله- ووالدي الكريم -رحمه الله-..

إلى زوجتي الحبيبة.. وأولادي.. وأزواجهم.. وأحفادي.. وسائر العائلة الكريمة..

إلى الإخوة والأصدقاء الأجلَّاء..

أهدي هذا الكتاب

*****

# تمهيد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمِينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خاتَم الأنبياءِ والمرسَلينَ سيِّدنا محمَّدٍ وعَلى آلهِ وأصحابه ومن تبعَهُ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين.

إنَّ القرآن الكريم ليسَ كغيرِه من الكتب؛ فهو كتابُ هدايةٍ وإرشادٍ وشفاءٍ لما في الصُّدور، وقد بلغَ في البلاغة[1] نهايتَها، وفي الحُسن غايتَه، وفي الأسلوب البديع والتأثير العجيب ما هو أكبرُ الأدلةِ على أنه كلامُ الله عزَّ وجلَّ وتنزيلٌ من الحكيم الحميد، فتجدُه في آية واحدة يجمع بين الوسائل والمقاصد[2] وبين الترغيب والترهيب، وفيه من العلوم الدينية والدنيوية والأخروية الكثيرُ، وفيه من الأمور النافعة والتوجيهات للعِباد ما يُعينهم على أمور حياتهم وسيرهم على الطريق الصحيح علمًا وعملًا، برعاية ربٍّ كريم غفور رحيم، والوقوفُ على تفسير بعض القرآن يُعينُ أعظمَ عونٍ على معرفة باقيه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر]، والمُعرِض[3] الذي لا يتفكَّر ولا يتدبَّر آياته لا ينتفع بها، أما المُقبلُ عليها بحبٍّ وتفكُّرٍ لمعانيها وبحُسن قصد، فإنه سوف يجد طريقَه

---

١- البلاغة: أحد علوم اللغة العربية، قد سميت بذلك لأنها تنهي المعنى لقلب المستمع مما يؤدي إلى فهمه بسهولة.

٢- الوسائل والمقاصد: الأدوات التي يمكن بواسطتها إيصال فكرة أو غاية، والمقاصد هي المصالح الكلية التي حددها الشرع.

٣- المُعرِض: الذي يرفض ويعارض.

إلى ما يطلُبه وإلى ما هو مطلوب منه بإذن الله ويسعد في حياته وبعد مماته.

والمولى تعالى يُديرُ الكونَ باسمِه «ٱلرَّحۡمَٰنُ» وصفتِه «**الرحيم**»، وهو «دائمُ الرَّحمة» و «أرحمُ الرَّاحمين»، والقرآن نفسُه «رحمةٌ» وفيه من الخير والسعادة والفلاح الشيءُ الكثيرُ، وأنزل الله في القرآن سورةً سمَّاها «ٱلرَّحۡمَٰنُ»، وكذلك وصف الله وسبحانه وتعالى نبيَّه سيِّدنا محمَّدًا ﷺ بأنه «رحمةُ العالمين»، حيث قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء].

لذا عقدنا النيَّة أنا والصديق العزيز مُدقِّقُ ومُراجِعُ هذا البحث الأخ محمَّد عماد قلب اللوز ـ حفظه الله ـ وهو أستاذ في اللغة العربية والشريعة، أن نقوم بإلقاء بعض الضوء على ما تحتويه سورةُ «ٱلرَّحۡمَٰنُ» من معانٍ جليلة وإرشادية وبشائرَ[1] من الله تعالى للمؤمنين، والله وليُّ التوفيق.

١ – بشائر: جمع بشرى، وهي نقل الخبر المفرح.

# مقدمة

من سنَّة الإله العظيم سبحانه في هذا الكون أن جعل لكل شيء مُميِّزات حبَاه الله[1] بها دون غيره، وهذا الكلام ينطبقُ على الإسلام، فالإسلام فيه من المُميِّزات والخصائص ما تجعله لا يتشابه مع الأديان الأُخرى، وكذلك فإن رسولَنا الأعظمَ سيِّدنا محمَّد ﷺ قد خصَّه الله بخصائصَ جعلته يتميز عن غيره من الأنبياء والرسل عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لذلك فإنا نقول: إنَّ الله قد خصَّ كتابَه الكريمَ بخصائصَ جعلته يختلف عن غيره من الكتب السماوية، ومنها: الحفظ[2]، والإعجاز[3]، والتَّحدي[4]، والشُّمولية[5]... وإن أهمَّ خصيصة فيه وأبرز ميِّزة فيه أنه كلام الله سبحانه، ولا شك أن لكل سورة من سوره صفات تختصُّ بها عن غيرها من السور، وسوف نقوم في هذا الكتاب ببيان وتفسير سورة «ٱلرَّحۡمَٰنُ».

«ٱلرَّحۡمَٰنُ» اسمٌ من أسماء الله تعالى، ذُكِرَ في القرآن الكريم حوالي (٥٨) مرَّة، منها (١٢) مرَّة في سورة مريم فقط، و«ٱلرَّحۡمَٰنُ» هو اسم لله عزَّ وجلَّ، كما أنه صفة دائمة لذاته سبحانه.

---

١- حبَاه الله: أعطاه الله.

٢- الحفظ: الصون من الضياع والتلف.

٣- الإعجاز: لا يستطيع البشر أن يأتي بنفس المحتوى.

٤- التَّحدي: الدعوة إلى التباري والمواجهة (على الإتيان بمثل القرآن).

٥- الشُّمولية: الإحتواء على كل ما يدخل ضمن حاجة واهتمام الإنسان.

ورحمة الله عامة وتشمل جميع الخلائق من إنسان وحيوان ونبات، كما أنها تشمل المؤمن والكافر. وهنالك رحمة خاصة للمؤمنين في الدنيا بتوفيقهم للهداية والصراط المستقيم وتثبيتهم عليه ليفوزوا بالجنة.

«**الرَّحيم**» اسم لله تعالى، وهو «دائم الرَّحمة» وهذه الصفة ستُدخل المؤمنين الجنة في الآخرة، وأكثر ما ذكر من اسم «**الرَّحيم**» كان مقترنًا سبحانه باسم «الغفور» ومن ذلك قوله: ﴿...وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل].

وهو «أرحم الرَّاحمين»، وقد وصف الشيخ محمَّد متولي الشعراوي «الرَّحمة» أنها إسباغ[1] النعم على المخلوقات، وإن كان المُنعَم عليه لا يستحق أكثرها، و«الرَّحْمٰن» مبالغة في الرَّاحم، والمبالغة تأتي على معنيين:

- مبالغة في ذات الصفة (أي ذو رحمة واسعة).
- ذو رحمة متعدِّدة بتعدُّد المرحومين.

وهناك آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم تتحدَّثُ عن «الرَّحْمَة» وسَعَتها وشُمولِها واستمرارها منها:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ[2] لَا تَقْنَطُواْ[3] مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

﴿...رَبَّنَا وَسِعْتَ[4] كُلَّ شَيْءٖ رَّحْمَةٗ وَعِلْمٗا...﴾ [افر: ٧].

---

١- إسباغ: إتمام.

٢- أسرفوا على أنفسهم: تجاوزوا الحد.

٣- لا تقنطوا: تيأسوا من الخير.

٤- وسِعْت: أغنيت وبسطت وأكثرت.

﴿...وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ...﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ...﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ومن رحمة الله أنه أرسل الأنبياء والرسل والكتب السماوية لإرشاد العباد، وخلق الكونَ والموجوداتِ والنِّعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصى رحمةً بالعباد.

ولاسم «ٱلرَّحْمَٰنُ» خصائصُ أُخرى نلحظها في القرآن الكريم كما يلي:

• «ٱلرَّحْمَٰنُ» اسم من أسماء الله الحسنى التي لا تُطلق إلا عليه وحدَه، وممنوعة من الإطلاق على سواه سبحانه.

• البسملة، تبدأ «**باسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم**».

• لم يكن أيٌّ من أسماء الله الحُسنى آيةً مُستقلَّةً في القرآن كما كانت آية «الرَّحْمٰن»، ولم تكن سورةٌ مثلُها تحمل اسمًا من أسماء الله الحسنى.

• أكَّد اللهُ سبحانه على عظمة اسم «ٱلرَّحْمَٰنُ» مبيِّنًا إمكانية الدعاء به مستقلًا دون اسم الله الأعظم «**الله**» قائلًا: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

• دلَّ سبحانه وتعالى باسم «الرَّحْمٰن» في سورة الرَّحمن على أربعين (٤٠) آية من آيات رحمة «ٱلرَّحْمَٰنُ».

• اسم «ٱلرَّحْمَٰنُ» اسم قديم عرَفه الأنبياء من قبل سيِّدنا محمَّد ﷺ بدليل قوله سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ

ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف].

• اقترن[1] تنزيل القرآن الكريم على خاتم النبيين باسم «ٱلرَّحۡمَٰنُ»، بدليل قوله سبحانه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصّلت]، وبه كان تعليم القرآن أيضًا، بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾﴾ [الرَّحمن].

• باسم «ٱلرَّحۡمَٰنُ» ينطق المبعوثون -من المتّقين والكفار- يوم القيامة، بدليل قوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا[3] ﴿٨٥﴾﴾ [مريم]، والكفار ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا[4] هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ[5] ﴿٥٢﴾﴾ [يس]، وفي قوله تعالى أيضًا: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ[6] إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا[7] ﴿١٠٩﴾﴾ [طه].

• «ٱلرَّحۡمَٰنُ»: هو الاسم الذي دعا به الأنبياء وأقوامهم إلى الله تعالى:

- قال الله تعالى على لسان سيِّدنا محمَّد ﷺ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ[8] ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١١٢].

---

١- اقترن: اتصل به وصاحَبَهُ.

٢- نَحۡشُرُ: نجمع الناس إلى أرض الحشر يوم القيامة.

٣- وَفۡدًا: الوفد الجماعة المختارة للقاء ذي الشأن.

٤- مَّرۡقَدِنَا: المرقد هو مكان النوم، والمعنى هنا قبورنا.

٥- ٱلۡمُرۡسَلُونَ: هنا بمعنى من بعثهم الله لتبليغ أمره وشرعه.

٦- ٱلشَّفَٰعَةُ: الواسطة للعفو والتجاوز عن الذنب.

٧- وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا: أي رضي الله قول الشافع فيمن يشفع له.

٨- تَصِفُونَ: تقولون.

– أمرَ الله سبحانه خاتم النبيين سيِّدنا محمَّدًا بالدعوة إلى «ٱلرَّحۡمَٰنُ» في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الملك: ٢٩].

– وقال سيِّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥].

– وكذلك في كتاب سيِّدنا سليمان عليه السلام إلى أهل اليمن قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ [النمل].

– وفي قول سيِّدنا هارون عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ[1] وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠﴾ [طه].

– ولسيِّدنا زكريا عليه السلام قال الله تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:٢].

– استعاذةُ السيِّدةِ مريم عليها السلام بـ «ٱلرَّحۡمَٰنُ» حيث قالت: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم].

وقد ذكرَت السُّنةُ المطهرةُ أحاديثَ عديدةً عن «رَحْمَةِ» الله تعالى، منها:

– عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحمَةَ في مِئةِ جُزءٍ، فأمسَكَ[2] عِندَه تِسعَةً وَتِسعِينَ جُزءًا،

---

١ – فُتِنتُم بِهِۦ: أعجبتم به وفي وهذا اختبار لكم.

٢ – أمسك: أبقى.

وأَنـزَلَ في الأرضِ جُزءًا وَاحِـدًا، فمِن ذِلكَ الجُزءِ يَترَاحَـمُ[1] الخَلْقُ حَتَّى تَرفَعُ الفَرَسُ حَافِرَهَا[2] عَن وَلَدِها خَشيَةَ أَن تُصِيبَهُ» [رواه البخاري ومسلم].

– وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ – رضي الله عنه –، أَنَّهُ سَـمِعَ رَسُـولَ اللهﷺ، يَقُـولُ: قَـالَ اللهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: «أَنَـا الرَّحْمَـنُ، خَلَقْـتُ الرَّحِـمَ[3]، وَشَقَقْتُ[4] لَهَا اسْماً مِنَ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا[5] وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ[6]» [رواه الترمذي].

– وعن عبدِ الله بنِ عمرٍو ـ رضي الله عنهما – أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحمَنُ، ارحَمُوا أَهْلَ الأرضِ يَرحَمكُمْ أَهْلُ السَّـمَاءِ» [رواه أبو داود].

– وفي الحديـث عـن النبي ﷺ أَنَّـهُ قَـالَ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُكُـمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِـهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُـولَ الله؟ قَالَ: «وَلَا أَنَـا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي[7] اللهُ مِنْـهُ بِرَحْمَـةٍ وَفَضْلٍ» [رواه الإمام أحمد في مسنده]. وهـذا لا يعني أن الأعمال ليـس لها قيمةٌ أو تأثـيرٌ في دُخول الجنة، فقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا[8] بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [سـورة الزخـرف]، وقال تعالى أيضًا:

---

١- يتراحم: يتعاطف ويعامل برقة ولطف ولين.

٢- حَافِرَهَا: وهي تقال لأقدام الدواب.

٣- الرَّحِمَ: موضع تكوين الجنين في بطن المرأة.

٤- وَشَقَقْتُ: صاغ منها، أي: أخذ منها معناها.

٥- وَصَلَهَا: الأحسان إلى الأقربين.

٦- بَتَتُّهُ: قطعته.

٧- يَتَغَمَّدَنِي: يسترني ويغطيني.

٨- أُورِثْتُمُوهَا: انتقال ملكيتها إليكم بفضل من الله.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [سورة الواقعة]، وهناك آيات أُخرى كثيرةٌ، والجمعُ بين هذه الآيات والحديث أن الجنة ليست عِوضًا للعمل، ولكنَّ العملَ سببٌ لدُخول الجنة، وإنما يدخُلُها مَن يدخُلُها برحمةِ الله إذا أخذ بالأسباب التي جعلها الله أسبابًا لدُخولِها.

ويمكن تناول سورة «ٱلرَّحۡمَٰنُ» بالإجمال كما يلي:

ابتدأت السورة بتعديد آلاء[1] الله الباهرة، ونعمه الكثيرة الظاهرة على العباد، التي لا يُحصيها عدٌّ، وفي مقدمتها نعمة «تعليم القرآن» بوصفه المنّة[2] الكبرى على الإنسان، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾.

ثم فتحت السورة صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله الجليلة ونعمه الكثيرة الظاهرة، وآثاره العظيمة التي لا تُحصى: الشمس والقمر، والنجم والشجر، والسماء المرفوعة بلا عمد[3]، وما فيها من عجائب القدرة وغرائب الصَّنعة، والأرض التي بثَّ فيها من أنواع الفواكه والزروع والثمار رزقًا للبشر: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾ [الآيات].

وتحدثت السورة عن دلائل القدرة الباهرة في تسيير الأفلاك[4]،

---

١ – آلاء: نِعَمْ.

٢ – المنّة: الإحسان والإنعام.

٣– عمد: جمع عامود، وهو الدعامة.

٤ – الأفلاك: جمع فلك، وهو المدار الذي تسبح فيه الكواكب.

وتسخير السفن الكبيرة تَمْخُرُ عُبابَ البحار وكأنها الجبال الشاهقة عظمة وضخامة، وهي تجري فوق سطح الماء ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الآيات].

ثم بعد ذلك استعراضٌ سريعٌ لصفحة الكون المنظور[١]، تطوي صفحات الوجود[٢]، وتتلاشى الخلائق بأسرها، فيلفُّها شبحُ الموت الرهيب، ويطويها الفناء[٣]، ولا يبقى إلا الحيُّ القيومُ متفردًا بالبقاء ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾.

وتناولت السورة أهوال[٤] القيامة، فتحدثت عن حال الأشقياء المُجرمين، وما يُلاقونه من الفزع والشدائد في ذلك اليوم العصيب[٥] ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الآيات].

وبعد الحديث عن مشهد العذاب للمجرمين، تناولت السورة مشهد النعيم للمُتقين في شيء من الإسهاب[٦] والتفصيل، حيث يكونون في الجنان مع الحور العين والولدان ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الآيات].

وخُتمت السورةُ بتمجيد[٧] الله جلَّ وعلا والثناء عليه، وعلى ما أنعم على عباده من فنون النعم والإكرام، وهو أنسبُ خِتام لسورة الرَّحمن

---

١- الكون المنظور: الكون المشاهد للإنسان.

٢- الوجود: لكل ما هو موجود في الكون.

٣- يطويها الفناء: الزوال الهلاك.

٤- أهوال: شدائد وخوف.

٥- العصيب: الشاق الصعب الشديد الفزع.

٦- الإسهاب: التوسع والتطويل.

٧- تمجيد: تعظيم.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾، وهكذا يتناسق البدء مع الخِتام في أروع صور البيان.

ومما يلفت النظر في هذه السورة أن هناك آية تتكرَّر باستمرار، إنها قول الله تعالى مُخاطبًا الإنس والجن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، لقد تكرَّرت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرَّة (٣١)، وقد قال العلماء إنه كلما ذُكرت هذه الآية يُستحبُّ أن نقول بعدها: (لا بشيءٍ من نِعمِكَ ربَّنا نُكذبُ فَلكَ الحمدُ)، ومما يلفت النظر أن أحد العلماء الأفاضل كان قد بحث في هذه السورة وهذه الآية وعدد تكرارها (واجتهد واستنبط)[1]، فوجد أن هناك علاقة أساسها الرقمين (٧) و (٨)، حيث قسَّم السورة إلى أربعة (٤) نصوص، واستخلص أنه في كل من هذه النصوص قد تكرَّرت آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ كما يلي:

أ. سبع (٧) مرات في نص واحد، وهو الذي يتحدَّث في مجمله عن النار، وهذا هو عدد أبواب جهنم.

ب. ثماني (٨) مرات في النصوص الثلاثة التي تتحدث عن الجنة ونِعم الله سبحانه، وهي بعدد أبوب الجنة الثمانية.

[ولكن نحن لا نجزم بهذا التفسير، وما هو إلا استنتاج واجتهاد بَحْتٌ، والله أعلم].

وهناك من العلماء من فَصَّلَ وقَسَّمَ واجتهد في تفسير سورة «ٱلرَّحۡمَٰنُ» بتفسيرات أُخرى، كما أن هناك علماء آخرون قالوا ونصحوا بقراءتها أو قراءة بعض الآيات منها عددًا من المرَّات لطرد الجن وخلاف ذلك، والله أعلم.

---

١ – اجتهد واستنبط: بذل ما في وسعه ليستنتج.

وهذا ما استلزم البحث في أقوال العلماء الثقات وتفاسيرهم لهذه السورة العظيمة، مع استنباط الهدايات من آياتها، مع ذكر معاني الكلمات ليسهل قراءتها وفهمها مع تفسيراتها.

وبهذا نستطيع التعلُّم من سورة «اَلرَّحۡمَٰنُ» الكثير الكثير، وقد تم بيان السورة المباركة وتنظيم شروحاتها كما تكلم عنها العلماء الأفاضل في هذا الكتاب، كما يلي:

١. اعتماد رسم السورة من مصحف المدينة المنورة، طبعة مجمع الملك فهد -رحمه الله-.

٢. ترتيب السورة بالمصحف الشريف، وعدد آياتها، وأسباب نزولها، وفضلها، من عدة مصادر.

٣. شرح معاني الكلمات، وأُخذت من عدة مصادر.

٤. من هداية الآيات، وقد أخذ الكثير منها من كتاب «أيسر التفاسير لكلام العلي القدير» للشيخ أبو بكر الجزائري -رحمه الله-.

٥. تفسير موضوعي للسورة، أُخذ من كتاب «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله -.

٦. شرح وتفسير تفصيلي للسورة: أُخذ بتصرف من خواطر ومحاضرات الدكتور محمد راتب النابلسي ـ حفظه الله -.

وأرجو أن نكون قد وُفِّقنا في القيام بخدمة هذه السورة الجليلة، كما نسأل الله العلي القدير التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

# سورة الرَّحْمَن

آياتها: إن عدد آيات هذه السورة «ٱلرَّحۡمَٰنُ» هو (٧٨) ثمانٍ وسبعون آيـة، وترتيبها (٥٥) الخامسـة والخمسـون، وهي في الجزء (٢٧) السـابع والعشرين من المصحف الشريف.

وقد اختُلـف في تحديد كونها مكية أو مدنيـة، ولكن الرأي الأرجحَ يقـول بأنهـا «مكية»، ودليل ذلك أن عبد الله بن مسـعود ـ رضي الله عنه ـ قام في مكة بقراءتها جهرًا[1] على مسـامع قريش، وقد علا صوته فيها حتى قيـل إنهم ضربوه وأحدثوا أثرًا في وجهه، رغم وجود نُسـخ من المصحف الشريف تُصنِّفُها على أنها سورة «مدنية».

تسـميتها: هذه السـورة في كل آياتها وتفاصيلها حديث عن نعم الله العُظمـى فـ «ٱلرَّحۡمَٰنُ» مصـدر كل خير ومصدر كل رحمة، وما من رحمة في الأرض إلا مشتقة من الله عزَّ وجلَّ، ولعل من أعظم الرَّحمات هذا الكتاب الكريـم الذي بين أيدينا، و«ٱلرَّحۡمَٰنُ» اسـم جامع لمُعظم أسـماء الله تعالى، فهـذا الكون خُلق مـن أجل الرَّحمة، وخَلـق اللهُ الإنسـانَ ليرحمه، وخلقه لجنة عرضها السـماوات والأرض، وإذا بدا للإنسان شيء في تَوَهُّمِه خلاف الرَّحمة فهو في الحقيقة أوهام باطلة.

وقد أطلق عليها بعض العلماء اسم سورة «النعم»، كما سماها آخرون سورة «الآلاء»، والله أعلم.

سـبب نزولها: قيل: إن سـبب نزول هذه السـورة هو قول المشركين

---

١ – جهراً: رفع بها صوته.

المحكِيِّ عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (١) ۝٦٠﴾ [الفرقان]، فتكون تسميتها باعتبار إضافةِ سورةٍ في القرآن باسم «ٱلرَّحْمَٰنُ» لإثبات وصفِ «ٱلرَّحْمَٰنُ» ... فردَّ الله على المشركين بأن الرَّحْمَن هو الذي علَّم النبي ﷺ القرآن.

وقيل أيضًا: إن هذه السورة نزلت بسببِ قول المشركين في النبي ﷺ: ﴿... إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ...﴾ [النحل: ١٠٣]، أي: إن هناك من البشر من يُعلِّم الرسول ﷺ القرآن، وكان اهتمامهم بذكر الذي يُعلِّم النبي ﷺ القرآنَ أقوى من الاهتمام بالتعلُّم من القرآن.

وورد أيضًا أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - ذكر ذاتَ يوم القيامةَ والموازينَ والجنةَ والنارَ، فقال: وددتُ أني كنتُ خضراءَ من هذه الخضر تأتي عليَّ بهيمة تأكلني، وأني لم أُخلَق، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن].

فضلها: لقد ذكرت السُنَّة النَّبوية فضلَ سورة «ٱلرَّحْمَٰنُ»:

(أ) ورد عن علي - رضي الله عنه - أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قالَ: «لِكلِّ شَيءٍ عَروسٌ (٢)، وعَروسُ القُرآنِ سُورةُ الرَّحمنِ» رواه البيهقي، وهذا لا يعدو أن يكون ثناءً على هذه السورة، وليس هو من التسمية في شيء.

(ب) عن جابر - رضي الله عنه - قال: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَرَأَ عَلَيهِمْ سُورةَ الرَّحمنِ مِن أَوَلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَسَكَتوا، فَقَالَ:

---

١- نُفُورًا: تباعداً وإعراضاً عن الحق.

٢- عَروسٌ: هنا بمعنى ما يوصف بالحسن والجود.

«لَقَدْ قَرَأْتُها عَلَى الجِنِّ لَيلَةَ الجِنِّ، فَكانُوا أَحسَنَ مَرْدُودًا[1] مِنكُم، كُنتُ كُلَّما أَتَيتُ عَلى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قَالُوا: لَا بِشَيءٍ مِن نِعَمِك رَبَّنا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الحَمدُ» [رواه الترمذي].

١ – مَرْدُودًا: انتفاعاً.

## سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾
عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ
﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾
فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ
الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ
مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

### معاني الكلمات:

١- الرَّحْمَٰنُ: اسم من أسماء الله تعالى.

٢- عَلَّمَ الْقُرْآنَ: أي: علم من شاء من عباده القرآنَ.

٣- خَلَقَ الْإِنسَانَ: سيِّدنا آدم وذريَّته أيضًا.

٤- عَلَّمَهُ الْبَيَانَ: أي: علم آدم وذريَّته البيان الذي هو النطق والتعبير.

٥- الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ: أي: يجريان بحساب معلوم لا يضطرب.

٦- وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ: النجم: ما لا ساق له من النبات، والشجر: ما له ساق، يسجدان: أي يخضعان لله تعالى بما يريد منهما في طواعية.

٧- وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا: رفع السماء فوق الأرض وأعلاها بغير أعمدة.

٧- وَوَضَعَ الْمِيزَانَ: أي: أثبت العدل بين العباد، أمر به وألهم صُنعَ آلته.

٨- أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ: لأجل ألَّا تجوروا فيما يوزن به من آلات، ولئلَّا تجوروا بالموازنة بين الأمور.

٩- وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ: أي: احكموا بالعدل في جميع معاملاتكم.

٩- وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ: أي: لا تنقصوا الموزون الذي تزِنونه، بل وَفُّوه.

١٠- وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ: أي: ثبَّتها ومهَّدها لِيستقرَّ عليها الأنام، وهم الإنس والجن والحيوان.

١١- فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ: كل ما يُتَفَكَّه به الإنسان من أنواع الفواكه الكثيرة، والنخيل ذات الأكمام، وهي الأوعية التي يكون منها التمر.

١٢- وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ: أي: ما في الحَبِّ من بُرٍّ وشعير، وعَصْفُه أي: يابسُه (التبْنُ).

١٢- وَالرَّيْحَانُ: نبت معروف، والمراد به هنا أنواع الرياحين ذات الرائحة الطيبة.

١٣- فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ: أي: فبأي نِعَمِ ربِّكما يا معشر الجن والإنس تُنكران؟

١٤- خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ: أي: خلق آدم من طين يابس يُسمَع له صلصلةٌ كالفخار.

١٥- وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ: أي: خلق الجنَّ من لهب النار الذي لا دخان فيه.

## مـن هدايـة الآيـات

الآية: ١ - «ٱلرَّحۡمَٰنُ» اسم لله عزَّ وجلَّ، لا يصح أن يُطلقَ على غير الرَّب تبارك الله وتعالى.

الآية: ٢- فضل وضرورة تعلُّم القرآن، لقوله ﷺ: «خَيرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ» [أخرجه البخاري].

الآية: ٣- تقرير أن الله وحده هو من خلق الإنسان بدءًا من سيِّدنا آدم ومن ثَمَّ ذريَّته من بعده، وانتهاء بآخر مولود حتى يوم القيامة.

الآية: ٤- ضرورة السعي للعلم؛ لأن الله سبحانه خلق فينا الإدراك (العقل) والتفكير، وعلَّمنا البيان لنفهم ونتعلَّم كيفية تعريف وتصريف أمورنا في الدنيا.

الآية: ٦- كل مخلوقات الله سبحانه (بما فيهم الحيوان والنبات والجماد) تُسبِّح بحمده وتسجد لله سبحانه، ولكن الإنسان لا يفقه تسبيحهم ولا الكيفية التي يتم بها ذلك.

الآية: ٧- تقرير أن كل صغيرة وكبيرة من أقوال وأعمال العباد سوف توزن يوم القيامة بميزان العدل الحق والمطلق، ثَمَّ تأتي رحمةُ الله تعالى.

الآية: ٨- لابد من محاسبة جميع العباد بأعمالهم ومعاملاتهم سواءًا في الدنيا أو في الآخرة.

الآية: ٧-٨-٩- إن الله سبحانه وتعالى خلق الكون بميزان دقيق لكلٍّ من المخلوقات، وسَخَّرَ بعض المخلوقات للبعض الآخر بميزان دقيق أيضاً.

الآية: ٩- وجوب إقامة العدل والتواصي به دائماً حسب مراد الله؛ لأن بالعدل صلاح العالَم أجمع.

الآية: ٩- ضرورة مراقبة الموازين والمقاييس والمكاييل لدى التجار وإصلاح فاسدها، وقياسًا على ذلك مراقبة جميع المعاملات (المالية، والتجارية، والاجتماعية، والعائلية).

الآية: ١٤-١٥- بيان أصل خلق الإنسان من طين لازب (صلصال كالفخار)، وهو مفضَّلٌ على الجانِّ حيث خلقهم الله من لهيب النار.

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾
مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ
﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ
وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ
أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ
إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ
﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ
إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾

معاني الكلمات:

١٧- رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ: أي: مشرق الشتاء ومشرق الصيف، أي مطالع الشمس وغروبها.

١٩- مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ: أي: إن البحرين (العذب والمالح) يلتقيان في رأي العين، أو مكان التقاء البحار.

٢٠- بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ: أي: بينهما حاجزٌ لا يبغي أحدُهما على الآخر فيختلط به.

٢٢- يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ: أي: يخرج منهما اللؤلؤ الأبيض والمرجان، وهو خرز أحمر.

٢٤- وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ: هي السفن الضخمة الجارية كالجبال عظمًا وارتفاعًا.

٢٦- كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ: أي: كل مَن على الأرض من إنسان وحيوان وجان هالك (ميت).

٢٧- وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ: أي: ذاته سبحانه وتعالى (دون تشبيه).

٢٧- ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ: أي ذو العظمة والإنعام على عباده عامة، والمؤمنين بخاصة.

٢٩- يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ: أي: يسألونه حاجاتهم التي تتوقف عليها حياتهم من الرزق والعون والمغفرة للذنب...

٢٩- كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ: أي: كلَّ وقت هو في أمر، شؤون يُبديها وفق تقديره لها سبحانه، يرفع أقوامًا ويضع آخرين، إلى ما هنالك...

٣١- سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ: لحسابكم ومجازاتكم أيها الإنسان والجان، وسنجزي كلًّا بما عمل.

٣٣- إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟: أي: إن قدرتم أن تخرجوا، (أي: إن وجدتم منفذًا تهربون منه).

٣٣- مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ: أقطار: نواحي.

٣٣- فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ: أي: فاخرجوا، لا تنفذون إلا بقوة يعطيها الله للإنسان.

٣٥- يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ: الشواظ: لهب النار الخالص.

٣٥- فَلَا تَنتَصِرَانِ: أي لن تنجحوا، وستُساقون إلى المحشر.

٣٧- فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ: أي: انفتحت أبوابًا لنزول الملائكة إلى الأرض لتسوق الخلائق إلى المحاسبة.

٣٧- فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ: أي مُحمَرَّةً احمرارَ الأديم، وذابت فكانت كالوردة في صفائها.

٣٩- فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ: أي: يوم يخرجون من قبورهم لا يُسألون عن ذنوبهم لما فيهم من خوف وهيبة، ولكنهم يُسألون عند الحساب.

## من هداية الآيات

الآية: ١٤-٢٠- ضرورة التفكر والتدبُّر في مخلوقات الله وتصرفاتهم لمعرفة إعجازه في خلقه.

الآية: ١٧- يُستحب معرفة مطالع الشمس ومغاربها في الشتاء والصيف، وهما مشرقان ومغربان؛ وذلك لمعرفة مواقيت الصلاة، وتنظيم الأوقات في الحياة للعمل والراحة والنوم وإلى ما هنالك.

الآية: ٢٢ - أن مصادر صناعة اللؤلؤ والمرجان الأصلية هي البحار.

الآية: ٢٤- أن السفن الشاهقة العلو والارتفاعات في البحر ظهرت فقط في العصر الحديث، ولم تكن في زمن الرسول ﷺ، وفيه استقراء لما سوف تكون عليه أشكالُ السُّفن بعد حينٍ من نزول القرآن، وهذا دليل على أن القرآن من لَدُنْ خالقِ الكون الحكيم.

الآية: ٢٦- تقرير عقيدة أن كل المخلوقات في الكون ستموت لا محالة وستفنى، ومن ثم يأتي البعث في يوم القيامة والحساب والجزاء في الآخرة.

الآية: ٣١- استحباب قول: «**لا شيء من آلائك ونعمك ربنا نكذب، فلك الحمد**»، وذلك عند سماع أو قراءة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الآية: ٣١- أن تسمية الجن والإنس (الثقلان)؛ لأنهما أُثقِلا بالتكاليف في الدنيا، والحساب بالآخرة سيكون للإنس والجن معًا، والله أعلم.

الآية: ٣٣- استحالة التحرك في الأرض أو الصعود والنفاذ من أقطار السماء إلا بقوة من الله تعالى يضعها في خلقه أو في سننه الكونية.

الآية: ٣٣- بيان جلال الله وعظمته وقوة سلطانه المطلق.

الآية: ٣٧- بيان أنه سوف يكون هناك انقلابٌ كونيٌّ يوم القيامة، وإنشقاق السماء وتلونها من الأدلة على قيامها.

يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

## معاني الكلمات:

٤١- يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ: أي: بعلاماتهم، من اسوداد الوجوه، وزرقة العيون.

٤١- فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ: أي: تُضَمُّ جبهةُ المجرم إلى قدميه ويُؤخذ فيُلقى في جهنم.

٤٣- هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ: أي: قال لهم توبيخًا وتبكيتًا: هذه جهنم التي يكذب بها الملحدون والكافرين.

٤٤- يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ: أي: يسعون مترددين بينها وبين ماء حار، وهو الحميم يُسقَونه إذا عطشوا.

٤٦- وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ: أي: لمن خاف مخالفةَ أمر ربه في الدنيا وعمل واتقى الله جنتان.

٤٨- ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ: أي: فيها أغصانٌ من شأنها أن تُورِق وتثمر وتمُدَّ الظِّلَّ.

٥٠- عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ: ينبوعان من المياه يسرحان لسقي الأشجار لتثمر، ولشرب الماء السلسبيل.

٥٢- فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ: أي: من كل ما يُتفكَّه به من أنواع الفواكه صنفان اثنان.

٥٤- مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ: أهل الجنة يجلسون على بُسُطٍ للنوم والجلوس.

٥٤- بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ: أي: لحائف الفرش من إستبرق، وهو ما غَلُظَ من الديباج، والظهائر من السندس، وهو ما رقَّ من الديباج، والديباج: الحرير.

٥٤- وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ: أي: وما يُجنى من ثمار الجنة قريب التناول يناله القائم والقاعد.

٥٦- فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ: فأعيُنُهنَّ على أزواجهن فقط.

٥٦- لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ: أي: لم يَمسسهُنَّ قبل أزواجهنَّ إنسٌ ولا جانٌّ.

٥٨- كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ: أي: كأنَّهنَّ في جَمالِهن الياقوت في صفاته، والمرجان الأبيض في لونه.

٦٠- هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ: أي: ما جزاءُ الإحسان من العبد بالطاعة في الدنيا إلا الإحسان بالنعيم في الجنة.

٦٢- وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ: أي: تحت الجنتين الأُولَيان جنتان أُخريان (مقام أدنى).

٦٤- مُدْهَآمَّتَانِ: أي: شديدتا الخضرة.

٦٦- فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ: أي: فَوَّارتان دائمًا وأبدًا بالماء العذب الزُّلال.

## من هداية الآيات

الآية: ٤١- يُبعَثُ الناس من قبورهم يوم القيامة ولهم علامات تميزهم، فيُعرف مَن منهم السعيد ومَن منهم الشقي.

الآية: ٤١-٤٣- يجب التنديد بالإجرام، وهو الشرك والظلم والمعاصي (التي لم يكن بعدها توبة وعمل صالح)، والمجرمون مصيرهم جهنم لا محالة (إلا إذا تابوا وأصلحوا).

الآية: ٤٢-٤٥- وجوب حمد الله عزَّ وجلَّ وشكره في السرَّاء والضرَّاء؛ لأن وقوعها على العبد هو لِحِكَمٍ أرادها الله عزَّ وجلَّ، وهي من الابتلاءات والامتحانات له، وسيُجزى خيرَ الجزاء كل من صبر وشكر، وسيُعاقب عليها شر الجزاء كل من تبرَّم وكفر.

الآية: ٤٦- بيان فضل الخوف من الله تعالى عند تعرض العبد لمعصية؛ فيتركها خوفًا من الله تعالى.

الآية: ٤٦- بيان أن نعم الآخرة أعظم وأجل من نعم الدنيا، ولا تقاس بها، وما وصفها بالقرآن إلا ليتمثل الإنسان عِظَمها وسعتها.

الآية: ٥٦- بيان أن أفضل النساء في الدنيا هي التي تقصر نظرها على زوجها وتحافظ عليه، ولا تلتفت إلى غيره من الرجال (وكذلك الزوج).

الآية: ٥٦- أن النساء الصالحات بالدنيا مخيرات في الجنة يخترن أيًّا من الأزواج يُفضِّلن، كما أنهُنَّ تكنَّ سيدات الحور، أي: إن الحور العين يقمُن بخدمتهِنَّ في الجنة، كما تُنزع الغيرة والحسد من صدور النساء، ولا مكان إلا للحبِّ والمودة بين الأزواج خاصة، وجميع من دخل الجنة عامَّة بإذن الله.

الآية: ٦٠- الإشادة بالإحسان، وبيان جزائه في الجنة، والإحسان: هو إخلاص العبادة لله على الوجه الذي شرع أداءها عليه، مع الإحسان والرحمة إلى جميع المخلوقات بكفِّ الأذى عنهم، مع بذل الفضل لمن احتاجه منهم، وكذلك الإتقان بالعمل بكل صوره لوجه الله تعالى.

الآية: ٦٢- بيان أن اقل نعيم في الجنة أعظم وأجل من كل نعيم الدنيا، وفيها ما لم يخطر على بال البشر، وهي جزاء معظم المؤمنين ولو لم يكونوا من الأوائل السابقين بالخيرات وأصحاب الدرجات العلى.

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾
فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ
مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

معاني الكلمات:

٧٠- فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ: أي: في الجنات نساءٌ خيِّراتُ الأخلاق حِسان الوجوه.

٧٢- حُورٌ: أي: النساء الخيِّرات الطِّوال البيض، والواحدة حوراء.

٧٢- مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ: أي: مستورات وملازمات لأزواجهن في الخيام.

٧٦- عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ: أي: على وسائد أو بُسُطٍ خُضْرٍ، جمع (أخضر).

٧٦- وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ: أي: بساط له مخمل رقيق، أي بُسُطٌ من أحسن المواد.

٧٨- تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ: أي تقدَّس وكثرت بركة اسم ربِّك «الرَّحمن».

٧٨- ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ: أي ذي العظمة والإكرام لأوليائه، والإحسان إلى عباده.

## من هداية الآيات

الآية: ٦٨ – هناك منافع كثيرة للتمر والرمان، وقد بيَّنتْ ذلك الأبحاث الحديثة.

الآية: ٧٠– أن النساء الخيرات الأخلاق بالدنيا هُنَّ مع أزواجهِنَّ ومعارفهِنَّ الخيرات الحِسان في الجنة.

الآية: ٧٨– البركة تُنال بقول: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» والتسبيح بـ: «ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ».

الآية: ٧٨– من دعاء الرَّسولِ ﷺ أنه قال: «أَلِظُّوا بِيَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ» [أَيِ: الْزَمُوه واثْبُتُوا عَلَيْهِ وأَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِهِ والتَّلَفُّظِ بِهِ فِي دُعائِكم] [سنن الترمذي].

### ملاحظات لطيفة:

١. اجتهد بعض العلماء وقالوا: إن كل إنسان في الأرض أعطاه الله نصيبًا من النِّعم متساوية من حيث المقدار (القيمة) الإجمالي، بمعنى أنه لو فرضنا أن مقدار النِّعم المُعطاة لكل عبد هي ٢٤ قيراطًا، فإنه قد يُعطى عبد مثلًا قيراطين من الغنى وستة قراريط من الصحة وأربعة قراريط من الرضا إلى ما هنالك من النِّعم لتصل إلى ٢٤ قيراطًا، وأُعطي كل إنسان قيمة إجمالية مماثلة من النعم أي ٢٤ قيراطًا أيضًا ولكن من أنواع النِّعم المُختلفة والمُتفاوتة في المقدار، كأن يُعيطه خمسة قراريط من الغنى وقيراطًا من الصحة ونصف قيراط من الرضا إلى ما هنالك من النِّعم لتصل إلى مقدار إجمالي وهو ٢٤ قيراطًا أيضًا، وكذلك الحال مع سائر البشر.

٢. من اجتهادات الدكتور محمد راتب النابلسي أنه قال: الحظوظ في الدنيا موزعة «توزيع ابتلاء» وسوف توزع في الآخرة «توزيع جزاء» لأن الآية الكريمة تقول ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ...﴾ [الإسراء: ٢١]. مثلاً واحداً بلغ أعلى درجات الغنى وآخر ليس لديه قوت يومه، هناك مريض وهناك صحيح وآخر قوي وآخر ضعيف وهناك جميل وآخر ذميم (بشع) لذلك قال تعالى: ﴿... وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء]. درجات الدنيا مؤقتة بينما درجات الآخرة أبدية، كل هذه التوزيعات بعد العوده إلى الله في الآخرة فالبطولة ومن كان له ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ٥٥﴾ [القمر]. قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران].

# سورةُ الرَّحْمَن

من كتاب «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ محمد الغزالي رحمه الله

«ٱلرَّحْمَٰنُ» من أسماء الله الحُسنى، ويكثر أن يقترن[1] باسم الذات ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ..﴾ [الإسراء:١١٠].

ومن آلاء الله العُظمى أنه لم يترك البشر دون هداية تقود خُطاهم وترسم هدفهم، فكان هذا القرآن الكريم جامعًا لما أودع في صحف الأنبياء الأولين، ومتضمِّنًا أسباب الرشد للناس حتى قيام الساعة، فهو في سورة الآلاء النعمة الأولى على صاحب الرسالة الخاتمة ﴿...وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ...﴾ [النساء:١١٣].

وهو نعمة عظمى على كل من درسه وفقَّهه[2] الناس فيه، قالَ الرَّسُولُ ﷺ: «خَيرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ» [أخرجه البخاري]؛ لأنه يخلف الأنبياءَ في تبليغ الرسالة ومحو الجاهلية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ [الرَّحمن].

ومن خصائص الجنس البشري نعمة البيان ونقل المعنى إلى الآخرين بألسنة[3] شتَّى، ثم بينَّ جلَّ شأنه أن الكون محكوم بسنن ضابطة، وأن الكواكب لا تتجول في الفضاء كما يحلو لها، بل إن لها مسارًا مرسومًا وسرعة محددة، وعليها إشراف دقيق!

وكذلك ما ينمو على الأرض من زرع له ساق مرتفعة أو له ساق

---

١- يقترن: يرتبط.

٢- فقَّه: عَلّم.

٣- ألسنة: لغات.

تمتـد على الثرى[1]، كلاهما خاضع لنظام محكَم ﴿...وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ [الحجر].

إن جنبـاتِ[2] الكـون تشـبه آلات السـاعة التـي تحُـصي الزمـن، ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾ [الرَّحمن].

وقد يظهر الفساد في البر والبحر بسبب فوضى الناس! وقد يقع ثقب في طبقة (الأوزون) بسـبب الإسراف والطغيـان، بَيدَ أن قياد[3] الكون لن تضطرب في يد خالقه! ولن يختل التوازن العام في قوانين المادة، إلى أن يأذنَ الله بفناء العالم وإعادة الخلق (في يوم القيامة).

ونحن مكلفون خلال هذه المدة -في الدنيا- بإقامة العدل، سـواء في تبادل السلع أو في إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه من الناحية الإدارية والاجتماعية، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [الرَّحمن].

ومـن نِعم الله عـلى خلقه ثمـرات الـزروع والنخيل، فمـع الفواكه الحلـوة حبوب في أغلفتهـا التي تطير مع الريح كالقمـح والأرز، ويعتمد أغلـب البشر عليها في غذائهم، كما أن تِبنَها تأكله الدَّواب، ثم هناك الورد والرَّيحان مُتعة لمن شاء.

وقد تكرَّرت آيـة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرَّة خـلال هذه السـورة، والخطاب فيها للإنس والجـن المكلفين بعبادة الله في هذه الدنيا.

---

١- الثرى: الأرض.

٢- جنبات: جوانب ونواحي.

٣- قياد: إدارة الأمور.

ويمكن تقسيم السورة كلِّها إلى أربعة فصول:

الأول: تكلَّم عن الخلق والإبداع.

والثاني: عن الفناء والبعث وجزاء المُجرمين.

والثالث: عن أهل السَّبق[١] من الطائعين.

والرابع: عن الذين يَلُونَهم[٢] من المحسنين.

ومعروفٌ أن سيِّدنا آدم خُلق من تراب، ثم من طين، ثم من صلصال من حمأ مسنون -مُنْتِن-، ثم من صلصال كالفخار، وخُلقت ذريَّته من نُطفة[٣] ثم عَلَقَة[٤] ثم مُضغة[٥] ثم صارت عظامًا ثم كسا العظام لحمًا ثم أنشأه خلقًا آخر.

هذه هي النشأة الأُولى، وسيملأ الناس أرجاء الأرض ثم يغلبهم جميعًا الموتُ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ الرَّحمن، ثم يستيقظون لمواجهة الحساب -يوم البعث-، ولن يُفلت منهم أحد، فأما الصالحون فإلى نعيم مُقيم، وأما الفاسدون فيُقادون إلى عُقبى[٦] ما قدموا.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ الرَّحمن،

---

١- السَّبق: السابقين السباقين.

٢- يَلُونَهم: الذين ياتون من بعدهم.

٣- نُطفة: خلية موجوده في مني الرجل.

٤- عَلَقَة: قطعة من دم جامد، وهي من أطوار تكوين الجنين.

٥- مُضغة: قطعة لحم كأنها ممضوغة.

٦- عُقبى: آخر كل شيء وخاتمته.

وهـؤلاء المجرمون يمرون بمراحل شـتى، فقد يُناقَشـون الحسـاب حينًا ويُسـألون عما فعلوا -كما يقع في دنيانا-، لكن بعد البتِّ[1] في شـؤونهم لا يبقى إلا التنفيذ، فيُساقون[2] إلى جهنم، والعياذ بالله.

وفي توبيـخ[3] المقصريـن وكشـف مخازيهـم[4] تتكـرر هـذه الجملة المثـيرة ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ عـلى نحـو أخَّـاذ، فقـد تفصل بين الشرط والجزاء، وتكشـف عُقوق المُفرِّطين[5] في جنب الله[6] قبل أن يذكر مـا يُفعل بهم، مثـل قوله جـلَّ شـأنه: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَـانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرَّحمـن]، هـذه الجملة الأخيرة جـواب إذا، وقبل أن يكتمل الجـواب تكرَّرت الآيـة ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، ثم يجيء الوصف المُتمم لعقاب الخونة ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرَّحمـن]، وهـذا التكرار ناضح[7] بشـدة الغضب الإلهـي على من جحدوا النِّعـم وعاشـوا يمرحون فيهـا دون أن يُقَدِروا صاحبهـا! كما يقول الأب الغاضـب لابنه العاق: أنا-أيها الخائن- أُهان؟! أنا يُنسـى أمري ويُهدر[8] حقي أيها العاق[9] الخؤون[10]..؟!

---

١- البتِّ: إصدار الأمر للتنفيذ.

٢- يُساقون: مدفوعون إلى السير.

٣- توبيخ: اللوم بعنف.

٤- مخازيهم: ما يبعث على الخزي والعار والذل والهوان.

٥- عقوق المفرطين: عصيان المتجاوزون للحدود.

٦- جنب الله: حق الله تعالى.

٧- ناضح: متناثر وظاهر.

٨- يُهدر: يضيع.

٩- العاق: العاصي.

١٠- الخؤون: الخائن الغدار الذي لا يحافظ على الأمانة.

وتُختم سورة الرحمن بوصف رقيق جميل لِلجنَان التي أُعدَّت للمتقين، فهناك جنتان لأصحاب الدرجات العلا ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمن].

ويتكرر الفصل بين الصفة والموصوف كما ذكرنا آنفًا في مثل قوله تعالى يصف الحور العين: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرَّحمن].

إن حقوق النِّعمة كبيرة، وحرام على من استمتع بها ألا يُقدِّرها، أو لا يدفع لها ثمنها...

وهناك جنتان أُخْريان لجماهير[1] المؤمنين ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ [الرَّحمن]، مع انتشار الخضرة وشيوع[2] الظلال صح هذا الوصف، وقد وصف وادي الفرات ووادي النيل بأرض السواد لغلبة الخضرة على الأرض، وهذه الجنان كلُّها قُرَّة عين[3] لأصحابها، جعلنا الله منهم.

---

١- جماهير: جمع جمهور وهم جمع من الناس.

٢- شيوع: مصدر شاع أي ظهر وانتشر.

٣- قرة عين: ما تقر وتسر وتسكن به العين والعيش في رغد وطيب.

## من خواطر الدكتور راتب النابلسي
## في تفسير سورة الرَّحْمَن (بتصرف)

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾

لقد صُدِّرَت[1] هذه السورة بكلمة «ٱلرَّحۡمَٰنُ»؛ لأن هذه السورة من أولها إلى آخرها تُعدِّد ألوان النِّعم في الدنيا والآخرة، ولعل كلمة (رحمة الله عزَّ وجلَّ) هي أوسع كلمةٍ تشير إلى عطائه المطلق، قال تعالى: ﴿...وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف].

إن خَلْقَ السماوات والأرض بُنِيَ على الرَّحمة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ...﴾ [الإسراء:١١٠].

الله خلقنا ليُعطينا، أعطانا الوجود، أعطانا الإمداد[2]، أعطانا الهدى والرشاد[3]، كذلك خلقنا لنعبده، خلقنا ليرحمنا، ولا يرحُمنا إلا إذا عبدناه، فإذا عبدناه وجبت لنا رحمته؛ لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِباتِ رَحْمَتِكَ[4]، وَعَزائِمَ مَغْفِرَتِكَ[5]» [أخرجه ابن ماجه]. وقال تعالى: ﴿...كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ...﴾ [الأنعام:٥٤]، حيث وردت (على) مع لفظ الجلالة فهي الإلزام الذاتي، كتب على نفسه الرحمة، وأرسل نبيه رحمةً مهداةً ونعمةً مُزجاةً[6]، وجعل دينه

---

١- صُدِّرَت: بدأت.

٢- الإمداد: الإعانات المتواصلة.

٣- الرشاد: طريق الحق والاستقامة.

٤- مُوجِباتِ رَحْمَتِكَ: ما أوجبت لفاعلها الرحمة من الله.

٥- عَزائِمَ مَغْفِرَتِك: جمع عزيمة، وهي عقد القلب على إمضاء الأمر وهنا طلب المغفرة من الله.

٦- نعمةً مُزجاةً: النعمة التي ساقها اليك برفق وتيسير.

نعمة، هو رحمن رحيم، ودينه قائمٌ على الرَّحمة، و«ٱلرَّحۡمَٰنُ» إذا عُزِيَت إلى الله عزَّ وجلَّ فإنها تعني رحمته بأن يصرف عن عباده السوء وأن يجلب لهم الخير.

لذلك من حكمة الله جلَّ جلاله أنه إذا ساق المصيبة للإنسان فهي من أجل أن يأخذ بيده إليه ويدلَّه عليه ويدفعه إلى بابه ليُذيقه طعم جنانه، ويذيقه طعم القُرب والحُب والطُّمأنينة، فالإنسان خُلِقَ ضعيفًا، ولو أنه خُلق قويًّا لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا [١] ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا [٢] ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا [٣] ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج].

العِبرة أن تُقبل على الله؛ لأن كل السعادة بالإقبال عليه، والإنسان إذا توهَّم أنه بإمكانه أن يَسْعَدَ وهو بعيدٌ عن الله فهو أجهل الجُهلاء، فالله تعالى يقول: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا [٤] وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ [٥] ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه].

هناك أشخاصٌ كثيرون قَسَت قلوبهم وانقطعوا عن ربِّهم وانغمسوا [٦] في شهواتهم، فجاءت رحمة الله لهم على شكل مصيبةٍ استيقظت عقولهم

---

١- خُلِقَ هَلُوعًا: خلق ضجوراً بالفطرة (وتفسيره بما بعده).

٢- مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا: إذا اصابته الشدة (كالفقر والمرض) فهو قليل الصبر عليه.

٣- مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا: إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ومنع حق الله تعالى فيها.

٤- مَعِيشَةٗ ضَنكٗا: عيش الشقاء والضيق.

٥- وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ: يبعث يوم القيامة أعمى عن الحجة لما فعله في الدنيا.

٦- انغمسوا: انشغلوا وأسرفوا.

بها، وأقبلت نفوسهم على الله فسَعِدوا بالله أيَّما سعادة، فكانت هذه المصيبة هي عينَ العطاء.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾

إن أول نعمة منَّ الله بها على الإنسان هي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا[1] ۝١﴾ الكهف، فكما أن الله خلق السماوات والأرض كذلك أنزل على عبده الكتاب (القرآن الكريم)، فكتاب الله هو أعظم رحمةٍ على الإطلاق.

وقد تساءل بعض المفسِّرين: كيف يُعَلِّمُ الإنسان القرآن قبل أن يُخْلَق؟ قيل: إن تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان تقديمٌ رُتَبِيٌّ[2] لا زمنيٌّ، أي: إن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه -يهتدي به-، فسرُّ سعادة المؤمن هو هذا الكتاب -الهادي- الذي عرَّفَكَ بربِّك وبسرِّ وجودك وبغاية وجودك وبالمنهج التفصيلي؛ لذلك: فإن هذا القرآن الكريم من هو لوازم رحمة الله عزَّ وجلَّ، إنه مقدَّمٌ على خلق الإنسان، مُقدمٌ على الماديَّات في حياة الإنسان.

ومعنى (علَّمه): أي يَسَّرَ ذكره، معنى (عَلَّمه): أي ألقى في روع رجالٍ كثيرين عَبْرَ العصور أن يقفوا على دراسته، وتلاوته، وتفسيره، وحفظه، والعناية به، فـ (علَّمه): أي يَسَّره للتعليم، (علَّمه) أي بيَّنه وجعله قطعي الثبوت، فالإنسان إذا قرأ القرآن يطمئن.

لقد خلق الله الإنسانَ ليرحمه، ولم يخلقه إلا ليُسعده في الدنيا والآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾، نحن بعقولنا ربما

---

١- عِوَجَا: ميلاً عن الحق.

٢- رُتَبِيٌّ: من الترتيب والمنزلة والمكانة والدرجة الرفيعة.

نـوازن بين شيءٍ وشيء، بين عملٍ وعمل... لكن عقولنا ليسـت مؤهلةً[١] للموازنة[٢] بين الوجود والعدم، فالله سبحانه وتعالى خلقنا وامتنَّ[٣] علينا بنعمة الوجود، فهذه النعمـة العظيمة (نعمةُ الوجودِ) امتن الله بها عليك، وسـخَّر[٤] لـك الكون، ومنحك نعمـة العقل، وأعطاك فطرةً[٥] سـليمة، وأنـزل عـلى أنبيائه الشرائع، وأنزل عـلى نبيِّه الكريم هـذا القرآن الكريم، وأعطاك حرية الاختيار.

هنا عندنا سـؤال قد يتبادر في الذهن: لمَ لمْ يقل الله عزَّ وجلَّ: الرحمن علم القرآن وخلق الإنسـان وعلمه البيان بـ (واو العطف)؟ والجواب أننا لـو أضفنا (تلك الواوات) لتوهَّمنا أن كل هـذه النعم نعمةٌ واحدة، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبيِّن لنا أن كل واحدةٍ نعمةٌ قائمةٌ بذاتها.

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾

البيـان خِصِّيصةٌ[٦] خَصَّ الله بها الإنسـان؛ فأنـت بإمكانك أن تعبرِّ عن أفكارك وعن مشاعرك وعن حاجاتك وعن طلباتك بكلماتٍ تصنعها حبالك الصوتية اصطلح الناس على مفهوماتها.

تصـور طفلًا يتألم من شيء، يبكي سـاعاتٍ طويلة دون أن يسـتطيع أن يُعبِّر عن سـبب بكائه، فتتوهَّم أمه أنه جائع، فتطعمه فيسـتمر بالبكاء،

---

١- مؤهلة: ذات أهلية وكفاءة وقدرة ومهارة.

٢- للموازنة: مصدر وازن أي قارن وساوى.

٣- أمتنَّ: أنعم وعدد ما قدم من الخير.

٤- سخَّر: كلف بلا أجر وأخضع.

٥- فطرةً: طبيعة.

٦- خِصِّيصةٌ: الصفة التي تميز الشيء عن غيره.

وتتوهم أنه يحتاج إلى تنظيف، فتنظفه ويستمر بالبكاء، ثم تكتشف أن دبوسًا في طرف ثيابه قد انغرس في جنبه، وأما الإنسان الراشد فيقول لك: أشعر بشيء، فهذا التعبير عن حاجتك وأفكارك ومشاعرك نعمة من نعم الله تعالى تُسمى (البيان)، فمن خلال البيان يمكن أن تتعرَّف إلى منهج الله، ومن خلال البيان يمكن أن تعرف قدر النبي ﷺ، ومن خلال البيان يمكن أن تقف أمام بطولاتٍ فذَّة في التاريخ الإسلامي، ومن خلال البيان يمكن أن تقف على علوم السابقين.

الله عزَّ وجل في مطلع هذه السورة أشار إلى نعمٍ جليلة من نعمه التي لا تُعدُّ، وهي:

١ـ نعمة الهداية.

٢ـ نعمة الوجود.

٣ـ نعمة البيان.

وهذا البيان قد يكون سُلَّمًا يهوي به إلى أسفل سافلين، فالإنسان بالغيبة والنميمة والسُّخرية والكذب يهوي؛ ولذلك قال الرسول الكريم ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا فِي الْجَنَّةِ» [مالك في الموطأ عن أبي هريرة]، فلذلك يَحْرِصُ المؤمن على سلامة لسانه حرصَه على إيمانه، قال ﷺ: «لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ[1]» [مسند أحمد عن أنس بن مالك].

---

١ – بَوَائِقَهُ : شروره.

إن تعليم القرآن قُدِّم في هذه السورة على خلق الإنسان ليبين أن وجود الإنسان لا معنى له دون منهجٍ يسير عليه، وأن هذا المنهج مقدمٌ على وجودك، أما إذا كنت موجودًا وفهمت هذا المنهج فقد كمَّلت وجودك، فأنت بالقرآن تكمِّل وجودك.

إن الأمم ترقى باللسان، وبماذا جاء الأنبياء والرسل عليهم الصلوات والسلام؟ جاؤوا بالكلمة فقط، هل جاء الأنبياء العظام بأسلحةٍ فتَّاكة؟ هل جاؤوا بأجهزة متطورة؟ بالتأكيد لا، بل جاؤوا بالكلمة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ...﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤-٢٥].

فالكلمة إما أن تكون طيبة تنتشر في الآفاق ويعمُّ خيرها البلاد والعباد، وإما أن تكون كلمةً خبيثةً ضالةً مُضِلَّةً تنتشر فتُفسِدُ؛ فلذلك قيل: طوبى لمن سخَّر هذا البيان لمعرفة الله وتعريف عباده به، والويل لمن سخَّر هذا البيان لإضلال الناس ولإفساد أخلاقهم.

وهناك نعمةٌ أخرى من نعم الله، إنها (نعمة الكون)، فهذا الكون كله مسخَّر للإنسان، قال سبحانه: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾، لو تصوَّرنا أن هذا الكون بلا شمس ولا قمر، والأرض لا تدور حول نفسها دورة واحدة في اليوم، ولا تدور حول الشمس دورة في السنة، ولو تصوَّرنا أن هذا الكون بلا قمر نُحْصي به الأيام والشهور... وكيف نحسب الوقت؟ وكيف نعرف الفصول السنوية الأربعة؟

حركة الأرض حول الشمس.. لقمر الذي يدور حول الأرض فيبدأ هلالًا إلى أن يُصبح بدرًا.. والشمس بحجمها، ولهيبها، وحرارتها،

وضوئها، وبُعدها عن الأرض، والأرض بحجمها، وشكلها، ونسبة السطوح المائية فيها، ونسبة اليابسة فيها، ودورتها، وسرعتها، وكل خصائصها بحسبانٍ دقيق من صنع عليمٍ قدير حكيمٍ خبير.

الشمس والقمر آيتان[1] خالدتان من آيات الله الدالَّة على عظمته، وعلى وحدانيته، وعلى كماله، فمن الذي صمَّم هذا التصميم؟

من خلق (طبقة الأوزون)؟ من الذي جعل هذا السقف المحفوظ[2]؟ إنه الله جلَّ جلاله، والبشرية في حيرة كيف تُرَمَّم[3] هذه الطبقة، وليس هناك حلٌّ حتى الآن.

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾

النجم هو النبات الذي لا ساق له، وهذا أحد أوجه التفاسير.

النباتات -ومنها الشجر- كلُّها تسجد لله بمعنى أنها تستمد وجودها منه، وتكاد تكون ظاهرة النبات من أجلِّ الظواهر التي تدلُّ على عظمة الله، النباتات لها جذر، الجذر له فرع ثم فرع آخر إلى أن يصل إلى هدب تقريبًا في رأسه، وفي رأس الهدب كرة اسمها القُلنسوة، وهذه تستطيع أن تذيب الصخر بحثًا عن الغذاء، فمن الذي صمَّم هذا النظام؟ ومن الذي صمَّم أن الشجرة إذا منعتَ عنها الماء تستهلك ماء أوراقها أولًا، فإذا جَفَّ ماء الأوراق تستهلك ماء أغصانها، فإذا جفَّ ماء الأغصان تستهلك ماء فروعها، ثم تستهلك ماء جذعها، وآخر ماءٍ تستهلكه ماء الجذر، لو أن الله عكس الأمر، ولو أن الفلاح نسي سقي الشجرة مرةً واحدة لماتت، فسبحان الله العظيم!

---

١- آيتان: مثنى آية وهي علامة ومعجزة.

٢- السقف المحفوظ: هنا بمعنى الغلاف الجوي.

٣- تُرَمَّم: من الترميم وهو إدخال إصلاحات أو معالجة.

حـدود الكـون لا يعلمها إلا الخالق سـبحانه تعالى ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾

إن مركبةً أُرسـلت إلى كوكب المُشتري، فانطلقت قبل ست سنوات بسرعة أربعين ألف ميل في السـاعة، وعليها مرصدٌ[١] عملاق، فاكتشـف هذا المرصد وهي إلى جانب المشتري مجرَّة[٢] تبعد عن الأرض ثلاثمئة ألف بليون سـنة ضوئية تحتاج أن تقطعها بمركبةٍ أرضية في خمسـين مليون عام، فكم تسـتغرق الرحلة إلى هـذه المجرَّة؟ ثلاثمئة ألف بليون سـنة ضوئية، فأيـن حـدود الكون؟ لا أحـد يعلَمها، فهنـاك أحدث مجـرَّة وأبعد مجرَّة، ومعنـى أبعد مجرَّة أنها كانت في هذا المكان الذي أصدرت منه أشـعتها إلى المَرصـد قبـل ثلاثمئة ألـف بليون سـنة، أين هـي الآن؟ لا يعلم ذلك إلا الواحد الديَّان سبحانه.

قـال بعـض العلماء: الميزان هـو «القرآن»؛ يوزن بـه كل شيء، وقال بعضهـم: هو «العقـل»، وقال آخرون: هـي «الفطرة»[٣]، وقد تتسـع هذه الكلمة -الميزان- لكل هـذه المعاني، فالعقل ميزان علمي، والفطرة ميزان نفـسي، العقل قد يضلُّ، والفطرة قد تنطمس[٤]، فالله جعل الميزان الأصلي هو القرآن الكريم (الشرع)[٥]، الحَسَـنُ ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه الـشرع، فالـشرع ميزان، والعقـل ميـزان، والفطرة ميـزان، والويل لمن لم يستخدم هذه الموازين.

---

١- مرصدٌ: هو موقع تقني من أجل مراقبة الأحداث الأرضية والكونية.

٢- مجرَّة: تجمعات هائلة من مليارات النجوم.

٣- الفطرة: الطبيعة.

٤- تنطمس: تتغير صورتها أو تمحى.

٥- الشرع: ما شرعه الله لعبادة وجعله واجب التطبيق.

الآن توجـد دعوة في أوروبا وأمريـكا إلى العفة، إلى تكريس[1] القيم الأخلاقية؛ لأن المجتمع على وشـك الانهيار، ولقد وصلوا بعقولهم إلى أن هذه الموبقـات تُهَدِّمُ البُنيـان الاجتماعي.. وبعض الـدُّول حرَّمت الخمر؛ لذلك فالعقل ميزان، والفطرة ميزان، والموازين موجودة فما الذي يمنعك أن تأخذ بها؟

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ ﴾

متى ينجح الإنسـان في حياتـه؟ ومتى يُوفَّق؟ إذا صحَّـت موازينه، فمثـلًا: لـو كان ميزان أحدهم أنـه كلَّما كثُـر دَخْلُه[2] وبأيِّ أسـلوبٍ فهو ناجح! هذا ميزان مختَلٌّ[3]؛ لأنه دَخْلٌ غيرُ مشروع، ودخلك يجب أن يكون مشروعًا، هذا هو الميزان الصحيح، فلا تكون ذكيًّا ولا متفوقًا إن أخذت ما ليس لك؛ لأن الله بالمِرصاد[4]، فلا تجد إنسانًا سعيدًا إلا واستخدم الميزان، ولا تجد إنسـانًا شَـقيًّا إلا وقد عطَّـل الميزان، وأوضـحُ شيء على ذلك أن المجرم تجده يرتكب جريمة سرقة، ويتوهم أنه سيعيش بهذا المبلغ المسروق إلى ما شـاء الله، لكن بعد ساعة يُلقى القبض عليه، ويُودع في السجن، أين عقلـه؟ ظهر أنه جاهل وغبي، فبعلم النفـس المجرمُ مصنَّف مع الأغبياء، فهو غبي لأنه وصل إلى طريق مسدود.

والمشـكلة الكبـيرة أن يكون الخطـأ في الميزان لا أن يكـون الخطأ في الـوزن، وفرق كبير بينهـما، فالخطأ في الميـزان يتكرر إلى أبـد الآبدين، أما الخطأ بالوزن فلا يتكرر، فالإنسان حينما يُعطيه الله عقلًا عليه أن يستعمله،

---

١- تكريس: ترسيخ وتثبيت.

٢- دخله: العائد المالي الذي يحصل عليه الإنسان من عمله أو ماله.

٣- مختَلٌّ: هنا بمعنى غير مستقيم، أو مضطرب.

٤- المرصاد: أي يراقبك ليحاسبك.

والإنسان لا يندم إلا إذا لم يستعمل هذا الميزان -عقله- كما أراد الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠﴾

أي: إن الأرض التي نحن عليها بحجمها وشكلها وقوامها وتضاريسها[1] ومُناخها وبَرِّها وبحرها ومائها وسمائها وهوائها وأنهارها ونباتاتها وحيواناتها وأطيارها وأسماكها ومعادنها وكلِّ ما فيها مصمَّمةٌ ومسخَّرة خصوصًا لمصلحة الإنسان، بل إن الله سبحانه وتعالى سخَّر ما في السماوات وما في الأرض جميعًا لهذا الإنسان. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية].

ليس في الأشكال الهندسية إلا شكل واحد يستمر الخط فيه إلى ما لا نهاية، [الكرة]، وأما باقي الأشكال فلها حروف وزوايا، فالأرض كرةٌ وقوامها وحجمها ودورتها... كلُّها مصمَّمةٌ خصوصًا لراحة الإنسان، ولك أن تفصِّل في هذه الآية ما شئت... وأما الكواكب الأُخرى فحرارتها تصل إلى مئات الدرجات فوق الصفر أو تحت الصفر، والحياة مستحيلة عليها.

الأنام هم البشر، وقيل أيضًا البشر والحيوانات.

وهكذا فالإنسان المؤمن في كل آية أو كشف علمي وقعت يده عليه أو أدركه بعلمه ينبغي أن يعلم علم اليقين أن كل هذه الآيات والاكتشافات إنما هي من آيات الله الدالة على عظمته.

---

١- تضاريسها: ما على سطح الأرض من مرتفعات ومنخفضات.

قيمة الإنسان عند الله عزَّ وجلَّ:

نحن في هذه الدنيا في مَشْغَلَة[1]، والدنيا فيها مُنْزَلَقات[2]، وفيها شهوات مُستَعِرة[3]، وفتن عظيمة، ونساءٌ كاسياتٌ عاريات، وذهبٌ وفضةٌ وأنواع النقود والسلطة والممتلكات والمركبات، والإنسان في زحمة الحياة قد ينسى سرَّ وجوده، وقد ينسى عظمة ربِّه، وقد ينسى منهج الله الذي بين يديه؛ ولذلك فالناس نيام -في غفلة- وإذا ماتوا انتبهوا، ولكن المؤمن في هذه الدنيا صاحٍ -واعٍ- ويعرف واجباته، فيقتطع من وقته وقتًا لمعرفة الله، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان].

يمشون هونًا أي: لا يسمحون للدنيا أن تستهلكهم، ولا يسمحون للدنيا أن تُنهي رسالتهم، ولا يسمحون للدنيا أن تصرفهم عن غايتهم ولا عن وِجْهتهم، فيقتطعون من وقتهم وقتًا لمعرفة الله، ولمعرفة أمره ونهيه، ويقتطعون من وقتهم وقتًا للعمل الصالح، ولتربية أولادهم...

إذا أراد شخص ما أن يُقدِّم لك هدية فماذا تقول له؟ ألا تقول له شكرًا؟ فكيف تكون أمام النعم العظيمة التي أعطاك إياها الله تعالى؟ الآية واضحة، ولكنَّ التفاصيل فيها لا تنتهي، والمقصود برد الفعل أن تشكر خالقك، وتتدبَّر آياته، وتُجلَّه وتُعظِّمه سبحانه وتعالى، فهو الذي خلق الأرض من أجلك، وسخَّرها بما فيها لك.

الأرض مُسخَّرةٌ لهذا الإنسان تسخيرين:

١ - تسخير تعريف: أي أراد الله -حينما سخَّر لك هذه الأرض- أن

---

١- مَشْغَلَة: في أعمال وأعباء تشغل الإنسان.

٢- مُنْزَلَقات: عدم ثبات وانحرافات.

٣- مُستَعِرة: مشتعلة وشديدة.

يُعرِّفك بعلمه وبقدرته وبحكمته... من خلال هذه الأرض.

٢ - تسخير تكريم: أراد الله أن تكون هذه الأرض لمصلحتك لترتاح فيها.

فينبغي أن يكون هناك ردُّ فعلٍ لكل تسخير، فردُّ فعلك على تسخير التعريف أن تُؤمن بالله عزَّ وجلَّ وبوجوده، وأن تعرفه بوحدانيته وكماله، وأن تعرفه بأسمائه الحُسنى وصفاته الفُضلى، وردُّ فعلك على تسخير التكريم أن تشكره سبحانه وتعالى.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾﴾

الله عزَّ وجلَّ قادر على أن يخلق لك القوتَ[1] فقط، القمح والأرز وغيرهما من الأقوات، ولكن لأنَّك مُكرمٌ عنده، ولأنك المخلوق الأول، ولأن الله تحبب إليك بنعمه أوجد لك فواكه، والفاكهة ليست قوتًا، وإنما للتفكُّه والتنعُّم، فالإنسان يأكل قمحًا، ويأكل خبزًا فيملأ معدته، ولعل القمح كما قال العلماء: غذاءٌ كامل، ولكن تصوَّر لو أن بيتًا ليس فيه إلا القمح كلَّ يوم إلى ما شاء الله!! أنت في الشتاء تأكل البرتقال وأنواع الفواكه الشتوية، وفي الربيع تأكل فواكه الربيع، وهذه من نعم الله عزَّ وجلَّ.

الأكمام: الكؤوس التي فيها غُبارُ الطلع، والتي تُلَقَّح فتكون منها الثمار، من الذي صمَّم هذا التصميم؟ ومن الذي جعل من كل شيءٍ زوجين اثنين؟ والإنسان كلما كان أقرب إلى التصميم الإلهي، وأقرب إلى الطبيعة التي أرادها الله عزَّ وجلَّ يقوى جسمه وتقوى مناعته للأمراض...

في النبات نظام الزوجية، فالنبات ذكر وأنثى، وهو يتكاثر! والتلقيح يتم عن طريق الرياح أحيانًا فالله جعل الرياح لواقح، ويتم عن طريق النحل أحيانًا...

---

١ - القوتَ: ما يأكله الإنسان ويعيش به (طعام).

﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢﴾

هذه هي المحاصيل أي القمح والشعير والذرة والعدس والحمص... إلـخ، القمـح هو المادة الغذائيـة الأولى في العالم؛ لأن القمـح غذاء كامل، ونحـن لجهلنا نأخذ لُبَّه النشـوي ونـدع قشره الذي فيـه الفيتامينات وفيه المعادن وفيه كل الخير، وسـاق القمح الذي يُقصف[1] وينكسر يسـمى في النهاية تبنًا، ويُعَدُّ الغذاء الكامل للحيوان، إنه ساق السُنبلة، وهو في تركيبه غذاءٌ كامـلٌ للحيوان، ولذلك التبن مادة أساسـية جدًّا في علف الحيوان، والريح تعصف به فلذلك سمي بالعصف.

وهذا الحَب ينضج في وقتٍ واحد، ولو كان كالفاكهة لحمل الإنسان مشـقةً لا حدود لهـا، لو أن الإنسـان مكلَّف أن يُمسـك السُـنبلة واحدةً واحـدةً ويتفحَّصهـا فإذا كانت ناضجةً قطعهـا وإن لم تكن ناضجة أبقاها لكان حصد القمح من الأشـغال الشـاقة، ولكن حكمة الله شاءت أن كل القمـح ينضُج في يـوم واحد، وما عليـك إلا أن تحصده، وأنـواع الفواكه والخضراوات تنضج تَباعًا رحمةً بنا.

ثم يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾

الآلاء: هي الآيـات الكونية الدالَّة على عظمته، وهي النِّعم العُظمى الدالَّـة على كرمه، فهل هناك خلل؟ أو هل هناك نقص؟ أو هل هناك شيءٌ على غير ما يُرام؟

﴿...مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك:٣].

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾

[السجدة:٧].

---

١- يُقصف: ينكسر بسرعة لهشاشته.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾

هـذه آيات إخبارية، فالله عزّ وجلَّ خلق الإنسـان من تراب، وخلق جنـس الجن مـن النار، ومعنى الآية: يـا معشر الجن والإنـس الذين كُلِّفا بحمل الأمانة كيف تكذبان بنعم الله الواسعة؟!

اتفـق العلـماء على أن الإنسـان هنا هـو آدم عليه السـلام، خلقه الله مـن صلصـالٍ من طينٍ كالفخار ومـن ثم خلق ذريته مـن صلبه -من ماء مهين، لذلك فالإنسان يوجد في جسـمه معادن كالأرض تمامًا، يوجد فيه منغنيز وحديد ونحاس وفوسـفور وبوتاسـيوم ومعادن كثـيرة، فالمعادن التي أودعها الله في الأرض تقريبًا موجودةٌ في جسم الإنسان،

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾

قـال بعض العلماء: ربُّ شروق الشـمس وشروق القمر، أو غروب الشـمس وغروب القمر على ظاهـره، ولكن الأرض تدور حول نفسـها دورةً في اليـوم، فالشـمس تُشرِق وتغيـب، والقمر يُـشرِق ويغيب، فمن الـذي صمَّم هذا الـشروق وهذا الغروب؟ طبعًا حركة الشـمس ظاهرة، وأمـا الحقيقة فهـي أن الأرض تدور حول الشـمس وتدور حول نفسـها دورةً، فيبدو لك أن الشمس تنتقل من المشرق إلى المغرب، ولكن الإنسان العاقل لو نظر نظرةً سريعة لرأى أن الشـمس تغيـب هنا، وفي اليوم التالي تُـشرِق هناك، فأين كانت في الليل؟ أتحت الأرض؟ الأرض إذًا في الفراغ، غابـت من هنا وأشرقـت من هناك، من هذا أخذنا الأمـر أن في كل أربعة وعشرين ساعة تدور الأرض حول نفسها عند خط الاستواء بسرعة ألف وسـتمائة كيلو متر بالسـاعة، وتدور حول الشـمس أيضًا وبسرعة تسعين ألـف كيلـو متر في السـاعة، وهذا ما يفـسر الشروق والغروب للشـمس والقمر، فسبحان الله!

ويوجد رأي ثانٍ: أن الشمس لها نهايةٌ عُظمى[1] في الصيف ونهايةٌ عُظمى في الشتاء، فإذا كان شخص له بيت باتجاه الشرق ومرتفع فإنه يُلاحظ أنها تُشرق في الصيف من هذه الجهة، وأما في الشتاء فهي تُشرق من جهة أخرى، فهناك مسافةٌ كبيرة بين أقصى مكان شروقٍ في الشتاء وأقصى مكان شروقٍ في الصيف، وهذا يتأتَّى من دورة الأرض حول الشمس ومن ميل محورها فكان شرق الصيف وشرق الشتاء، والأصح أن كل يومٍ بالتحديد هناك مكانٌ لشروق الشمس، ويصف هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج:٤٠].

الأرض كرة، يأتي الشروق بالتدريج، ولو أنها كانت مُكَعَّبةً فستأتي الشمس فجأةً، قال تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ الزمر:٥، التكوير: هو تداخل الضوء مع الظلام، والضوء والظلام لا يتداخلان إلا بحالةٍ واحدة، وهي أن يكون الشكل كرويًّا.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾

(البحرين) قال العلماء: مُطلق أيِّ بحرين، البحر الأحمر والبحر العربي، البحر الأحمر والبحر المُتوسِّط، البحر المُتوسِّط والبحر الأسود، الأبيض والأطلسي.

أو عند مَصَبِّ الأنهار العَذبة في البحار المالحة؛ فهاذان بحران، [ويُطلق على النهر الكبير (بحر) ].

معنى (مرج) أي: ترك، ترك ماء البحرين يضطربان، ولكن:

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾

---

١- عُظمى: كبرى أو حد أقصى.

معنى (برزخ) يعني: حاجز، ولا يبغيان: أي لا يتجاوزان حدودهما.

هـذه الآية حيَّرت العلماء: أين هذا البرزخ؟ وأين هما البحران؟ فمن خـلال التصويـر الفضائي اكتشـف أن بين كل بحرين خطًّـا، وهذا الخط متبـدِّل في حركته، بمعنى أن مياه كل بحرٍ لا تختلط بمياه البحر الآخر ولا تطغـى عليه، وطبيعة هذا البرزخ حتـى الآن مجهولة، إلا أنَّه من الثابت أن كل بحرٍ له مكوناته وله ملوحته وكثافته، ولا يمكن أن يختلط بمياه البحر الآخر مع أنهما متصلان.

وقال الله تعالى أيضًا في سورة الفرقان: ﴿...هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٥٣﴾ [الفرقان].

حجراً يعني مانعاً، ومحجوزاً يعني ممنوعاً أن يعبر (أو يرى) كل طرف للطـرف الآخـر. هنالك حجر محجور بـين المياه العذبـة للأنهار الضخمة والمياه المالحة للبحار التي تصب فيها هذه الأنهار.

البرزخ يمنع اختـلاط كل مياهٍ بالمياه الأُخرى، وأما الحجر المحجور فيمنع انتقال الأسماك التي تعيش في المياه العذبة إلى المياه المالحة والعكس؛ ولذلك فأكثر مكان تُصطاد فيها الأسـماك هو مصبَّات الأنهار؛ لأن أسماك الأنهـار لا تنتقل إلى البحـار لوجود هذا الحِجر المحجور بـين المياه العذبة والمياه المالحة، فسبحان الله!

﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣﴾

اللؤلـؤ حيـوان اسـمه المَحَـار، وهو حيـوان بحري هُلامـي رخو، وغلافـه هذا الصدف الذي نراه، أي صفيحتان كلسـيَّتان قاسـيتان جدًّا، ولهـذا الحيوان طِباعٌ، وله أجهزة دقيقة جدًّا، إلا أن هذا الحيوان لو دخلت

حَبَّة رملٍ إلى مملكته عُنوةً[1] لعالج هذا الخطر الداهم[2] بإفراز مادةٍ كلسيةٍ فسفوريةٍ على هذه الحبَّة من الرمل، وهذه المادة الفسفورية الكلسية التي يُفرزها على حبَّة الرمل هي اللؤلؤة، وهو لا يدري بل إنه يُدافع عن نفسه ويهاجم أعداءه فيصنع اللؤلؤ، قال تعالى: ﴿...وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا...﴾ [فاطر:١٢].

وأما المرجان فهو حيوان يعيش في البحار، وهذا الحيوان يتوالد مع الاتصال، أي ذرَّيته لا تنفصل عنه، ولذلك نجد في أستراليا رصيفًا من المُرجان طوله أكثر من ألف وستمئة كيلو متر وعرضه خمسون كيلو مترًا، والبحر الأحمر كلُّه مرجان، ولا مجال للتفاصيل فهناك دراسات حول المرجان، له ألوان رائعة؛ ألوان برتقالية وألوان قُرمزية، وتُصنع منه الأحجار الكريمة الجميلة، ويعيش السمك بين المرجان، فهاتان آيتان من آيات الله الدالَّة على عظمته.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

لولا أن الماء متماسك[3]، وأن الأجسام التي تُغمس[4] فيه يدفعها نحو الأعلى بحسب قانون أرخميدس لما كان هناك بواخر، وهذا البحر هو همزة وصلٍ لا همزة فصل، فثلاثة أرباع الكرة الأرضية مكوَّنة من البحار، والبحر كلُّه طُرُق، والناقلات العملاقة يمكن أن تنقل السيَّارات والشاحنات...، وكل شيء تنقله بكميَّات كبيرة من قارةٍ إلى قارة ومن بلد إلى آخر.

---

١- عُنوةً: بالقوة أي رغماً عنه.

٢- الداهم: المفاجئ.

٣- متماسك: مترابط بعضه ببعض.

٤- تُغمس: تغطس وتغمر أو تدخل فيه.

﴿وَلَهُ﴾: أي هو الذي صمَّم البحر، وهو الذي قنن هذا القانون.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أي كالجبال. فالله عزَّ وجلَّ جعلنا شعوبًا وقبائل لنتعارف وننمي الأرض ونعمرها، وكل بلد له إنتاج زراعي، فمثلًا: القمح في روسيا، وقصب السكر في كوبا، والشاي في سيلان، والموز في إفريقيا...، والناس بحاجة بعضها إلى بعض، فعن طريق البحار وبالسفن تُنقل البضائع، وتنقل المحاصيل، وكذلك تنقل المعادن والصناعات والطاقة، وما إلى ذلك.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾

أي: كل هذا الكون سيفنى لا محالة... قبل عشرات الأعوام لم تكن موجودًا، أما الآن فأنت موجود، وأنت بعد عشرات الأعوام قد لا تكون موجودًا.

ربُّنا سبحانه وتعالى يُعلِّمُنا أن كل من على الأرض فانٍ، ولأن الله سبحانه وتعالى في مطلع السورة قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾، قال هنا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

عند الوقوف وقفةً متأنيةً مع هذه الآيات فأول فائدةٍ تُستفاد من فناء الخلق أن الخلق كلُّهم سوف يتساوون، فالموت يُلغي غِنى الغَني، ويُلغي فقر الفقير، ويُلغي قوة القوي وضعف الضعيف...

أما الفائدة الثانية: فهي أن الإنسان حينما يفنى فإن فناءه سببٌ لانتقاله إلى الدار الآخرة، وشتَّان بين دارٍ دُنيا ودارٍ عُليا، دارٍ أساسها الفناء ودارٍ فيها البقاء، دارٍ أساسها الهمُّ والحزن ودارٍ أساسها الطُمأنينة والأمل...، ولولا الفناء لما انتقلنا إلى الدار الآخرة.

العقل كلُّ العقل، والفلاح كلُّ الفلاح، في العمل للآخرة، ألم يقل

النبي ﷺ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله» [أخرجه الترمذي عن شداد بن أوس].

* معنى الحديث: أي أن الفطن الذكي من جعل نفسه مطيعة منقادة لأمر الله وعمل للجنة، والعاجز (الأحمق) من لم يكف نفسه عن الشهوات وعمل المنكرات ومع تقصيره في طاعة ربه لا يعتذر ولا يتوب بل يتمنى على الله العفو والجنة.

**العمل الصالح أساس النجاة من النار:**

لو أن الإنسان حاسب نفسَه كلَّ يوم مساءً: ماذا فعلتُ من عملٍ ينفعني بعد الموت؟ ماذا فعلت من عملٍ ينفعني في الدنيا؟ الإنسان في حركة دائمة لتحقيق مصالحه في الدنيا، وخلال هذه الحركة هل سعى بعمله فيما يرضي الله تعالى؟ هل طلب علمًا؟ هل أمر بمعروف؟ هل نهى عن منكر؟...

إذا توهَّم المتوهِّمون أن المعاصي لها لذائذ فإن هذه اللذائذ سوف تنقضي وتبقى المسؤولية، فيجب الانتباه لذلك.

إن الطاعات -وإن كانت ذات كُلفة وذات مشقَّة- فإن المشقة تنقضي ويبقى الأجر والثواب، تمامًا كما لو أن طالبين أحدهما أمضى العام الدراسي مع أصدقائه وفي نزهاتٍ وفي سهراتٍ باطلةٍ، ثم جاء الامتحان، والثاني أمضى العام الدراسي في جِدٍّ وتعبٍ واجتهاد وسهرٍ وكَدٍّ، فالامتحان هو الفيصل؛ فالذي نجح بتفوق ينسى كل تعبه وتبقى لذَّة الفوز، والذي رسب ينسى كل لذائذه ويبقى خزيُ الرسوب[1].

المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من

---

١- الرسوب: السقوط والفشل.

ضيق الرَحِمْ إلى سعة الدنيا، فالأولى بالإنسان أن يَعُدَّ عمره عدًّا تنازُليًّا، ولو أن أحدًا وصل إلى الأربعين من العمر، فهناك سؤال مُحرج وخطير، وهذا السؤال: هل بقي بقدر ما مضى؟ فكلُّكم يعلم أنه كلما مات رجل سألوا عن عمره، والنبيﷺ -وهو سيِّد الخلق- عاش ثلاثة وستين عامًا، فهذا الموت آتٍ لا محالة[1]، كلَّما ازداد عقلك، وكلَّما ازدادت بصيرتك[2] فإنك تستعد له، ولا أحد يستطيع أن يُلغي الموت، ولا أحد يمكن أن يُنكر الموت، ولكن الإنسان يستعد للموت بالتوبة النصوح[3]، وبالعمل الصالح، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالدعوة إلى الله، وبخدمة الخلق، وبعملٍ يبتغي به وجه الله.

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجلُ مُؤمِنًا ويُمسِي كَافِرًا، ويُمسِي مُؤمِنًا ويُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِن الدُّنيا» [رواه مسلم].

* معنى الحديث: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فِتَنًا» أي سارعوا وسابقوا بأعمالكم الصالحة قبل مجيء الفتن التي تمنعكم منها وتصدكم عنها، والفتن هي للابتلاء والاختبار بالمحن والمنكرات والشدائد التي تحول بين العبد والعمل الصالح، وهي قسمان: فتن شبهات وعلاجها العلم، وفتن شهوات وعلاجها الإيمان والصبر.

«كِقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ»: هذا تشبيه للفتن بأجزاء الليل المظلمة الشديدة بحيث يصعب فيها الوصول إلى الحق.

---

١- لا محالة: لا بد ولا ريب.

٢- بصيرتك: قوة إدراكك وعلمك وخبرتك.

٣- التوبة النصوح: الرجوع إلى الله تعالى بعد المعصية والعزم على عدم العودة إليها أي التوبة الصادقة والخالصة لوجه الله.

«يُصْبِحُ الرَّجلُ مُؤمِنًا»: في أول اليوم

«ويُمسِي كَافِرًا»: يحتمل كفر النعمة ويحتمل الكفر الحقيقي في آخر اليوم.

«يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِن الدُّنيا»: لا يلتزم بدينه مقابل ما يعرض عليه في الدنيا من متع وسميت عرض لأنها تعرض وتزول.

فهذه الدنيا لو تمتَّعت بها بالمال، وبالصحة، وبالجاه[1]، وبالزوجة، وبالأولاد، وكل شيء على ما يُرام، هناك سؤال واقعي: هل بإمكانك أن تعيش على هذه الحال إلى أبد الآبدين؟ وهل في الإمكان أن تستيقظ كل يوم كاليوم السابق دون أن يتغير فيك شيء؟ كلا؛ فالذي نراه في الواقع أن الإنسان عندما يدنو من أجله[2] يُصاب بخللٍ في أجهزته، في كليتيه، أو في كبده، أو في قلبه، أو في دماغه، أو في أعصابه، أو بجرثومٍ أصابه، أو في حادثٍ حدث له، فالموت لابُدَّ واقع وله مُقدِّمات، ولكن من رحمة الله جلَّ جلاله علينا أن الإنسان بعد الأربعين خَطُّه البياني[3] يهبط، فما معنى ذلك؟ كان من الممكن أن تبقى نشيطًا شابًّا إلى ساعة الوفاة، ولكن الله أراد للإنسان أن يُنزِل خَطُّه البياني لعلَّه يتذكَّر أنه سيلقى الله تعالى، فهذا ضعف البصر، وضعف السمع أحيانًا، ووهن القِوى[4]، وانحناء الظهر، وشيب الشعر، إشاراتٌ عظيمة من الله أنْ يا عبدي قد قَرُبَ اللقاء، فماذا أعددت لهذا اللقاء؟

---

١- الجاه: المنزلة والقدر والشرف والمكانة.

٢- يدنو من أجله: يقترب من نهاية حياته.

٣- خَطُّه البياني: هنا بمعنى أن امكانياته المتعلقة بصحته نتيجة كبره.

٤- وهن القِوى: ضعف الوظائف البدنية.

قال ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أو غِنًى مُطْغِيًا، أو مَرَضًا مُفْسِدًا، أو هَرماً مُفْنِدًا، أو مَوتًا مُجْهِزًا، أو الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السَّاعَةُ فالسَّاعَةُ أَدهَى وأَمَرُّ» [أخرجه الترمذي عن أبي هريرة].

* معنى الحديث:

«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا»: أي سابقوا وسارعوا قبل (فوات الأوان) أن ينزل بكم واحد من هذه الأمور المذكورة:

١. «هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا»: ذلك أن الإنسان إذا افتقر فقراً شديداً فإن هذا الفقر ينسيه، يشتغل قلبه بلقمة العيش أين يجدها فلا يتمكن من كثير من الأعمال.

٢. «أو غِنًى مُطْغِيًا»: والغنى مظنه للطغيان وهذا من طبيعة الإنسان والغنى في كثير من الأحيان يحمل صاحبه على الفسق والبطر والتضييع.

٣. «أو مَرَضًا مُفْسِدًا»: مرض يفسد الأعضاء، يقعده بالفراش أو بالشلل فلا يستطيع القيام بالعبادات أو الأعمال الصالحة.

٤. «أو هَرماً مُفْنِدًا»: بمعنى أن الإنسان إذا وصل إلى مرحلة متقدمة في العمر وقد تتلف خلايا دماغه فينسى أو إذا وصل إلى مرحلة الخرف فيبتعد عن العبادات والأعمال الصالحة.

٥. «أو مَوتًا مُجْهِزًا»: وهو الموت الفجأة سواءً بسبب أو من غير سبب.

٦. «أو الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ»: إذا خرج الدجال فهذا فتنة عظيمة يتبعة الكثيرون.

٧. «أو السَّاعَةُ فالسَّاعَةُ أَدهَى وأَمَر»: يوم القيامة أشد من كل ما ذكرت سابقاً وهي أعظم بلاء ومصيبة.

تعليق المؤمن والكافر يوم القيامة وجزاؤهما:

المؤمن الذي أوتي كتابه بيمينه يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة].

ولكن من أوتي كتابه بشماله؟ يقول: ﴿...يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة]، إلى آخر الآيات، هذا ما يقوله الكافر في الآخرة.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾: أي إن الله عزَّ وجلَّ قوي، غني، مهيمن، عزيز، جبَّار، ذو انتقام من الطغاة...

و﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾: أي رحيم، لطيف، ودود، رؤوف، مُعطٍ، عفوٌّ، كريم، جواد، مُنعِم، محسن لجميع العباد...

وقال بعض المفسرين: إنه مُكَرَّمٌ عن أن يقع في نقص، ومُكَرَّمٌ عن أن يتصف بشيء لا يليق به.

فالمطلوب أن تعرف الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الله جلَّ جلاله بِقَدْرِ ما له من صفات الجلال له من صفات الكمال، جليلٌ وكريمٌ، قويٌّ ورحيمٌ، جبَّارٌ وعفوٌّ، بطشه شديدٌ ومغفرته واسعةٌ.

ثم يقول الله عزَّ وجلَّ في الآية التالية:

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

قال العلماء: يسألونه بألسنتهم، وأحيانًا يسألونه بلسان حالهم[١]، فالله عزَّ وجلَّ إما أن نسأله بألسنتنا للحاجة مثلًا: اللهمَّ اسقنا الغيث[٢]، وإما أن يسأله الناس بلسان حالهم، فكل إنسان بحاجة إلى شيء وحاجته إلى ذلك الشيء نوعٌ من السؤال، والاستعداد لقبولها سؤال، فكل الخلق مفتقرون إلى الله عزَّ وجلَّ، وكل شيء يحتاجه في كلِّ شيء.

الشجرة إذا قلَّ ماؤها وذَبُلَت أوراقها كأنها تسأل الله المطر، الدابَّة[٣] إذا جاعت تبحث عن الطعام، وكأنها في بحثها هذا تسأل الله الطعام، والإنسان في بحثه عن الطعام كأنه يسأل الله ذلك، والطفل الذي يبكي، لماذا يبكي؟ لأنه جائع، وبكاؤه سؤال...

الله سبحانه كلَّ يوم هو في شأن[٤]، أي: إن شأنَه مع المستقيم: التوفيقُ، وشأنَه مع العاصي: المُعالجةُ، وشأنَه مع الكريم: الإعطاءُ، ومع البخيل: الإتلافُ. الله عزَّ وجلَّ حكيم، له مع كل مخلوقٍ شأن حكيم بحسب حال ذلك المخلوق.

إن لله تعالى شأنًا معك إذا تُبتَ، وله معك شأن آخر إذا لم تتب، فهو دعاك إليه بالبيان، فإن استجبت له لك شأن وإن لم تستجب فلك شأن ثانٍ، فقد يكون شأنه التأديب، وإذا تضرَّعت[٥] إليه فلك شأن، وإن لم تتضرَّع إليه فلك شأن آخر وقد نسميه (الإكرام الاستدراجي[٦]).

---

١- لسان حالهم: حالتهم ووضعهم وظروفهم.

٢- الغيث: المطر الغزير.

٣- الدابَّة: كل ما يدب على الأرض وهنا الحيوان.

٤- الشأن: الحال والأمر بكيفية لا ندركها.

٥- تضرَّعت: سألت بتذلل وابتهال.

٦- الإكرام الاستدراجي: التكريم على مراحل وبتمهل قبل القيام بمحاسبته وعذابه.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

قال بعض العلماء: إن هذه الآية من أشد آيات الوعيد[1] (للوليد بن المغيرة من زعماء قريش المشركين)، وهي تشبه قولَه تعالى:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ المدثر. أي: دَعْهُ لي يا محمَّد، أنا أُرَبِّيه، أنا أؤدِّبه.

﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾: أي الإنس والجن، أمَّا معنى: (سَنَفْرُغُ) فهو من فَرَغَ إلى الشيء أي: قصد إليه، أي: سنقصد إلى محاسبتكم حسابًا دقيقًا. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر].

بعض الناس -لجهلهم- يتوهَّمون أنهم إذا أكلوا مالًا حرامًا باحتيالٍ أو بقوةٍ أو بقهرٍ فهم أذكياء، وإذا اعتدوا على أعراض الناس فهم رجال... والله سبحانه وتعالى يُبيِّن أن هناك حسابًا دقيقًا جدًا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ الزلزلة.

ولسوف يفاجأُ الإنسان يوم القيامة أن أعماله في الدنيا كلها صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها[2]، بوقتها وزمانها وحجمها ونواياها وأهدافها مسجلةٌ عليه في الكتاب -الذي تكتبه الملائكة-.

فمن هو العاقل؟ العاقل هو الذي يبحث عن جوابٍ لربِّه في كل لحظة من حياته، لماذا تبتسم لهذا الطفل ولا تبتسم لهذا؟ ولِمَ لَمْ تعدِل بينهما، ولماذا تعطي هذا ولا تعطي هذا؟... كل ذلك في كتاب، والحساب دقيق،

---

١- الوعيد: تهديد وإنذار بالعقاب.

٢- حقيرها: من الحقير وهو الدنيء والمهين.

وإن لكل حسنةٍ ثوابًا ولكل سيئةٍ عقابًا.

الله عـزَّ وجلَّ قد يهدِّد العباد لأنه يعلم السرَّ وأخفى، كما ذكر في هذه الآية، قال تعالى: ﴿...ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت].

الله عـزَّ وجلَّ حينما يُهدِّد فهو خالقنـا ونحن عباده، ونحن المخطئون وهو الحليـم الرحيم، وهو القوي قال تعـالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج].

نحـن في دار عمل، والآخرة دار حسـاب، نحـن في دار تكليف[1]، والآخرة دار تشريف[2].

إذًا: لا يغتر الإنسان أنه في صحة، أو في بحبوحة[3]، أو أن له مكانة[4]، أو أن له منصبًا رفيعًا، أو أن له شأنًا بين أسرته... فهذا كله مؤقَّت.

وقـال بعـض العلـماء: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ هـي من آيـات الوعـد والوعيد، والوعد للخـير والوعيد للعقاب.

ولأن هناك إلهًا يُحصي[5] على عباده كلَّ حركاتهم وسـكناتهم[6]، وهو إلهٌ عادلٌ يُحاسـب على دقائق الأمور، ويحاسـب على الـذرَّات، وكلُّ شيءٍ عنده بمقـدار، يقول سـبحانه: ﴿...وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ

---

١- تكليف: الإلزام بفعل ما أمر به الله.

٢- تشريف: تكريم.

٣-بحبوحة: في عيش كريم وهناء ورفاهية.

٤- مكانة: منزلة ورفقة وشأن ومنصب.

٥- يُحصي: يعد ويحصر ويضبط.

٦- سكناتهم: عكس (حركاتهم).

أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء].

إذًا: العاقل هو المستقيم، العاقل هو الذي يكسب المال الحلال، العاقل هو الذي يُمضي وقته في طاعة الله، وفي تربية أولاده على الحق، وفي التحلي بالأخلاق الحميدة وفي معرفة الله، وفي مساعدة في العمل الشريف وخدمة الخلق، وفي التقرُّب إلى الحق، هذا هو العاقل؛ لذلك قال العلماء: ليس كل ذكيٍ بعاقل. قد تجد إنسانًا أوتي قدرةً فكريةً فائقة تفوَّق بها في دراسته أو في جمع المال، أو تفوَّق بها فوصل إلى منصبٍ رفيع، ولكنه إن لم يعرف ربَّه، وإن لم يعرف أن هناك آخرةً بعد الدنيا وأن هناك حياةً أبديةً[1] سرمديةً[2] بعد الحياة الدنيا، وإن لم يستعد لهذه الحياة في الآخرة، وإن لم يستعد للحدث الذي لابدَّ منه -ألا وهو الموت- فإنه ليس بعاقل.

فكلما نما[3] عقل الإنسان اختار الله سبحانه على سائر خلقه كائنًا ما كان، واختار ما عند الله على ما عند خلقه، واختار الحياة الأبدية على الحياة الدنيا العابرة، فما هذه الحياة الدنيا؟ إن كل مكتسباتك فيها منوطةٌ[4] بضربات القلب، إن كل مكتسباتك[5] فيها منوطةٌ بسيولة الدم، فنقطةُ دم واحدة لو تجمَّدت في رأس أيِّ إنسان كائنًا من كان -ولو كان ملكًا- يفقدُ منصبه، أليس كذلك؟ الله جلَّ جلاله هو مالك المُلك، ولا أحد يملك شيئًا في حياته.

والله عزَّ وجلَّ أثنى على نفسٍ إنسانية تلوم وتُحاسب نفسها باستمرار

---

١- أبديةً: لا نهاية لها.

٢- سرمديةً: دائمة لا تنقطع (ما لا أول له ولا آخر).

٣- نما: كبر وزاد.

٤- منوطةٌ: معلقة بـ أو مرتبطة.

٥- مكتسباتك: ما تم تحصيله عن طريق عملك.

فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة].

هذا الذي يجلس قبل أن ينام يُحاسب نفسه: ماذا فعلتُ؟ وماذا قلتُ؟ وكيف نظرتُ؟ وإلى ماذا استمعتُ؟ وهل صُنتُ[1] بصري عمَّا حرَّم الله؟ وهل ضبطتُ[2] لساني؟ وهل اكتسبت مالاً من حلال؟...

قال رسول الله ﷺ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ» [رواه أحمد عن أنس بن مالك].

* معنى الحديث:

أن أعظم ما يراعي في الاستقامة بعد استقامة القلب (محبة الله وطاعته) هو استقامة اللسان لأنه ترجمان القلب والمعبر عنه ومن آفات اللسان الغيبة والفحش من القول.

هل يسأل المؤمنُ نفسَه: هل سيخاطبك الله تعالى بهذه الآية العظيمة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر]

إن كانت نفسه لوَّامةً[3] في الدنيا أصبحت نفسه مُطمئِنَّةً عند لقاء الله عزَّ وجلَّ، وكل الناس تخاف إلا المؤمن، يلقى الله تعالى وفي قلبه السكينة والطمأنينة.

البطولة في خريف العمر[4]، عند لقاء الله، في خواتم الأعمال[5]، فمن

---

١- صُنتُ: من صان أي: حفظ.

٢- ضبطتُ: حفظه من القول الفاحش والبذيء والغيبة والنميمة.

٣- لوَّامةً: التي تلوم صاحبها لوماً شديداً على ارتكاب الشر أو في التقصير في عمل الخير.

٤- خريف العمر: أي في نهاية العمر.

٥- خواتم الأعمال: الأعمال الأخيرة في حياة الإنسان.

أدعية النبي عليه الصَّلاة والسَّلام: «اللَّهُمَ اجْعَلْ خَيرَ عُمُرِي آخِرَهُ، وخَيرَ عَمَلِي خَواتِمَهُ، واجْعَلْ خَيرَ أَيامِي يومَ أَلقَاكَ» أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك.

قال سيدنا عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم، ومن حاسب نفسَه في الدنيا حسابًا عسيرًا كان حسابه يوم القيامة يسيرًا».

شتَّانَ بين حياة المؤمن وحياة الكافر، ذكر أحدُ الأطباء أنه جاءهم مريض مصاب بورمٍ خبيث في أمعائه، ولكن هذا المريض مؤمن، فقال الطبيب: والله إن أمر هذا المريض لعجيب! ما دخل عليه أحدٌ إلا أشهده أنه راضٍ عن الله تعالى، ويقول له: اِشهد أنني راضٍ عن الله، يا ربُّ لك الحمد...، المرض خبيث ومُؤلم، والآلام لا تُطاق، وما سُمِعَ له صوتٌ ولا أنينٌ، وكان إذا قرع الجرس يتهافت الأطباء والممرضون إليه لخدمته، وتفوح من غرفته رائحة المِسك، وتوفَّاه الله عزَّ وجلَّ، وأراد الله أن يُعطي كل من في المستشفى درسًا بليغًا، فدخل إلى الغرفة نفسِها مريضٌ آخر مُصابٌ بورمٍ خبيثٍ في أمعائه، وكلامُه كلُّه اعتراض وسخطٌ[1] على الله تعالى، وكلامٌ بذيءٌ وقاسٍ، وصار يتحاشاه[2] كل من في المستشفى، وتفوح[3] من غرفته رائحة كريهة، ومات على هذه الحالة، مرضٌ واحد وآلامٌ واحدة، ولكن شتَّان بين المؤمن والكافر؛ لذلك قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا

---

١- سخطٌ: غضب عليه ونقم.

٢- يتحاشاه: يتجنبه ويبعد عنه.

٣- تفوح: انتشرت رائحته.

لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ[1] شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ[2] صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [رواه مسلم عن صهيب].

المؤمن يرى أفعال الله عزَّ وجلَّ في السر والعلن، ولا يُشرك مع الله أحدًا، هذا العبد يُريحه التوحيدُ ويُلقي في قلبه السكينة والطمأنينة، فلا ينام مقهورًا، ولا ينام حاقدًا، ولا ينام في حيرةٍ من أمره، ولا يرى في الوجود إلا إلهًا واحدًا فعَّالًا لما يريد، وهو الذي في السماء إلهٌ وهو نفس الإله في الأرض، ويرى أن الأمر كله يرجع إليه، وأن بيده كل شيء، ومصير كلِّ مخلوق بيده، فعلاقته مع الله علاقة حب وطاعة.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾

أي: أنتم في قبضة[3] الله تعالى، وإذا عصى الإنسانُ اللهَ تعالى فهو من الجَهَلة، الإنسان إذا رفض منهج الله تعالى، ورفض أصل الدين وانكبَّ[4] على الدنيا، وعلى جمع المال، وعلى الانغماس[5] في الملذَّات، وعلى العلو في الأرض، انكبَّ على أن يبني مجدًا[6] على أنقاض الناس، نقول له: ثم ماذا؟ ماذا بعد التفوُّق؟ وماذا بعد الغنى؟ وماذا بعد القوة؟ وماذا بعد الصحة؟ وماذا بعد السيطرة؟...

إن هذه الآية هي إنذار من الله تعالى للجن والإنس حيث قال لهم:

---

١- السَّرَّاءُ: النعمة والرخاء والمسرَّة.

٢- الضَّرَّاءُ: الضيق والضرر والشدة.

٣- قبضة: يعني في ملكه وفي حوزته.

٤- انكبَّ: أقبل عليه ولزمه وشغل به.

٥- الانغماس: الإسراف والغوص والانشغال الزائد.

٦- مجداً: عزاً ورفقة وشرف ومكانة عالية.

إن عصيتمـوني ولم تطبقوا منهجي، ولم تتعرَّفوا عـليَّ، ولم تُؤمنوا بالآخرة، فهل تسـتطيعون أن تتفلتوا[٧] من عقابي؟ وهل تسـتطيعون أن تتفلتوا من قبضتي؟

الإنسان إذا عصى الله تعالى، ورفض الدين، ورفض الإيمان بالآخرة، وانغمـس في الدنيـا، وانشـغل بجمع الأمـوال، وانكب عـلى اقتناص[٨] الملذَّات، يُقال له: أين المهرب؟

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ...﴾ [الجمعة: ٨].

تصَّور إنسـانًا يعدو وقلبُه منخلعٌ[٩] خوفًا من أحدٍ يتبعه، فإذا به يرآه أمامه! فكم ستكون المفاجأة كبيرة؟

والله عزَّ وجلَّ قال:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا[١٠] فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة].

* معنى الآية:

أي كل أهل دين ومله له وجهة يتوجه إليها في عبادته (وليس المقصود هنا هو في اسـتقبال القبلة) ولكن الشـأن هو في امتثال طاعة الله والتقرب إليه فهذا هو عنوان السعادة ومن سبقه في الدنيا إلى الخيرات هو السابق في الآخـرة إلى الجنات وقد رتب الله عليها مـن الثواب بحيث يجمع الله جميع المخلوقات يوم القيامة بقدرته فيجازي كل عامل بعمله...

---

٧- تتفلتوا: تتخلصوا.

٨- اقتناص: اغتنام واصطياد.

٩- قلبه منخلع: منزوع أو يخرج منه (من الخوف والفزع).

١٠- هُوَ مُوَلِّيهَا: أي متوليها ومستقبلها أو مقبل عليها أو تابعها.

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ ﴾

في هـذه الآية قُدِّمَ الجنُّ هنا تقديمَ أهميـة؛ لأن الجنَّ أقدرُ من الإنس على خرق السماوات والأرض، وفي قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ١ ٨٨ ﴾ [الإسراء]، قَـدَّمَ الإنسَ؛ لأنهم أقدر في البلاغة[٢] من الجنِّ.

السـلطان في هـذه الآيـة هو العلم، العلـم الذي سـمح الله لكم به، فالإنسـان إذا رأى الآن مثلًا طائرة تحمل سـتمائة وخمسـين راكبًا وتُحلِّق في أطباق الجو[٣]، أليـس هذا أحد منجزات العقل البشري، فمن الذي خلق العقـل البشري؟ الله جلَّ جلاله، إذًا الله عـزَّ وجلَّ أعطانا أثمن جهاز على الإطلاق، والإنسان بهذا العقل صنع الطائرات، وأرسل الأقمار الصناعية، ونقل الصور، وخاطَبَ بالصورة، وغاص إلى أعماق البحار، وبنى البيوت، وصنع الأدوية، وربما يقول الله تعالى له يوم القيامة: يا عبدي، لو بذلتَ من هـذا العقـل أو هذا الذكاء واحـدًا في المليون لعرفتنـي وعرفت كل شيء، وصنعـت كل شيء، وارتقيـت[٤] إلى كل شيء، فمنجـزات الحضارة الآن شيء لا يُستهان به، وهذه ثمرة من ثمرات العقل البشري، وهذا العقل لو أعملته لما خلقَهَ الله له ماذا سيفعل بك؟

﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦ ﴾

---

١- ظَهِيرًا : معيناً على ما هم عليه.

٢- البلاغة: التعبير بمعنى يؤدي إلى الفهم بسهولة.

٣- أطباق الجو: المقصود طبقات السماء.

٤- ارتقيت: صعدت وارتفعت.

لا يمكـن لعاصٍ أو لكافر أن تكون عاقبة[١] أمره خيرًا أبدًا، وإن بدا لنـا ذلك فإن عاقبته في الآخـرة وخيمةٌ[٢] ومثواه[٣] النـار ولا محالة، فأين ثمرة النجاح أو الانتصار؟

فمثلًا: شـخص في أعلى درجات العلـم يحمل دكتوراه في الاقتصاد، ويرأس شركة تأمين في أغنى بلاد العالم، ويركب أحدث سـيارة، احترقت السيارة، ولحكمةٍ أرادها الله لم يستطع أن يخرج منها حتى أصبح فحمةً هو وزوجته، لكنه مُؤَمِّن على نفسه في الشركة، ماذا استفاد؟

وكلكم يرى الإنسانَ الذي ينحرف ماذا يحلُّ به؟ اليوم تحت أسماعنا وأبصارنـا هناك زلازل وبراكـين وحروب أهلية وقهر وتـشرُّد وقحط[٤] وفقر ومجاعات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾

هنـاك آيـاتٌ كثيرةٌ جـدًّا من القرآن تبـيِّن أن هذا الكـون على نظامه الدقيق وتكوينه البديع مسيَّرٌ[٥] إلى أجلٍ مسمى، وبعد هذا الأجل تُكوَّر[٦] الشمسُ وتنتشر[٧] الكواكب ويُسَجَّر[٨] البحر، وينتهي كل شيء. قال تعالى:

---

١- عاقبة: الجزاء بالخير أو بالضرر أو السوء.

٢- وخيمةٌ: رديئة ومضرة وجسيمة.

٣- مثواه: مأواه الأخير.

٤- قحط: إحتباس المطر والخير.

٥- مسيَّرٌ: أعماله خارجه عن إرادته الفعلية.

٦- تُكوَّر: تتجمع على ذاتها وتصبح كالكره.

٧- تنتشر: تتفرق وتتوزع.

٨- يُسَجَّر: توقد به النار.

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ[1] لَّهَآۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يس].

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ[2] ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ ﴾ إلى أن يقول: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ[3] ﴿١٤﴾ ﴾ [التكوير].

هذا اليوم لابدَّ أن يأتي، والعاقل هو الذي يُعِدَّ لهذا اليوم عُدَّتَهُ[4].

هذا الاستقرار، وهذا التوازن الحَرَكي في الكون، وهذه الكواكب كل كوكب يدور حول كوكب بمسار مُغلق، إهليلجي[5] أو دائري، وهذا الكون بالمحصلة[6] نظامه دقيق يتحرَّك مع التوازن، فليس هناك ارتطام ولا انحرافٌ عن المسار إذًا، هناك استقرار إلى أن يأذن الله سبحانه.

والآن في باطن الأرض نواة الأرض سائلة وحارَّة كالزيت المغلي، فربُّنا عزَّ وجلَّ -بوصفٍ دقيقٍ موجزٍ بليغٍ جامعٍ مانعٍ- يصوِّر لنا نهاية الكون، حينما يأتي يوم القيامة كل هذا النظام الأرضي والكَوني تتقوَّض دعائمه، وتنتهي مُهمَّته، ويأتي عالمٌ جديد، عالم الجنة والنار، وتُصبح السماء حمراء كالوردة سائلة كالدهان تمامًا. فهل يستطيع الإنسان بعد ذلك أن يكذب بيوم الدين؟

والبطولة أن تعرف الله في وقتٍ مُبَكِّر، فتعرف اللهَ قبل أن تتزوج كي

---

١- لِمُسۡتَقَرّٖ: مكان ثابت أو غاية ونهاية.

٢- ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ: الحامل ذات العشرة أشهر وعطلت أين تُخُلِّيَ عنها أو تُرِكت.

٣- عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ: ما أحضرت من خير فتصير به إلى الجنة أو من شر فتصير به إلى النار.

٤- عُدَّتَهُ: الاستعداد له.

٥- إهليلجي: أي مدارات شبه بيضاوية.

٦- بالمحصلة: بالنتيجة.

تختـار شريكة حياتك مؤمنةً تُعينك عـلى تطبيق دينك، وتعرف الله قبل أن تعمل كي تختار عملًا يتوافق مع مبادئك، وتعرف الله قبل أن تُقيم شـبكةً من العلاقات حتى إذا عرفت الله رأيت نفسك مربوطًا مع هذه العلاقات، فالبطولـة أن تعرف الله في الوقت المناسـب، وأفضل وقت وأنسـب وقت هو شـبابك، واسـمع لهذا الحديث الجامع المانع الذي يبين قيمة الشـاب، قال النبي ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوتِكَ، وَصَحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَراغَكَ قَبْلَ شُـغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ» [أخرجه الحاكم عن ابن عباس].

قال تعـالى: ﴿...قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ المؤمنـون، وقـال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر].

إن الذي يتعامل مع الآخرة تعاملًا جَدِّيًّا هم قلائل، والنمط السائد[1] يعيش لحظته، ويعيش وقته، ويعيش ليأكل ويشرب ويعمل ويكسب المال ويلهـو ويمرح.. لا شـك أنَّ هذا جيد ضمن حـدود الإيمان، ولكن لا أن تكون هذه هي الغاية من حياتك أيها الإنسان.

لو قيل لك: موعد انطلاق الطائرة بين الساعة الثامنة صباحًا والساعة الثامنة مسـاءً، وفي أية لحظةٍ سـوف نتصل بك، وعليك أن تخرج من بيتك فورًا وإلا ضاعت عليك هذه الرحلة، فإذا كنت لا تعلم متى يتَّصلون بك ماذا تفعل؟ تهيئ نفسـك من أول الوقت، فأسـعد النـاس من كان جاهزًا للقـاء الله عزَّ وجلَّ في أي وقت، فكل شيء في حياته واضح، وكل شيء في

١ – النمط السائد: الطريقة أو الاسلوب المنتشر والشائع.

عمله مُبَيَّن، علاقاته واضحة، ودخله حلال، وعمله إسلامي، وجوارحه منضبطة، ضبط دخله[1]، وضبط إنفاقه، وضبط أولاده وشبابه وزوجته، وضبط كل شيء في حياته، فإذا جاء الأجل يقول: مرحبًا بلقاء الله عزَّ وجلَّ، ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «تُحْفَةُ الْمُؤمِنِ المَوتُ» [أخرجه الطبراني عن ابن عمر]. أي أن الموت عُرْسُ المؤمن، والمؤمن الصادق حينما يأتيه الأجل يدخل في سعادةٍ لا توصف، وعلى الإنسان أن يقوم بأعمال يعود خيرها عليه بعد انقضاء حياته.

ولذلك فإن أخطر شيء ورد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ...﴾ [الفجر: ١٥]. أعطاه الله المال، والصحةَ، والسلطة، والزوجة، والأولاد، وأكرمه ونعَّمه، فيقول هو -جهلًا-: ﴿... رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر]، لا.. هذا ليس إكرامًا، هذا ابتلاء[2] وامتحان[3]، فنعمة المال كيف توظِّفها؟ فإن وظفتها في أعمالٍ صالحة فهي نعمة؛ لأنها سبب سعادتك في الجنة، والزوجة والأولاد إن دَلَلْتَهم على الله وأخذت بيدهم إلى الله فهم نعمة؛ لأنهم سبب دخولك الجنة، وكم من زوجةٍ تُرضي زوجها أشدَّ الإرضاء وهي سبب دخوله النار، لذلك كانت بعض الصالحات من السلف يودِّعن أزواجهن قبل أن يذهب إلى عمله فتقول له: «يا فلان اتقِ الله بنا فنحن بك وإليك، نصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام»، فكيف بامرأة لا تزال تُلِحُّ، ولا تزال تملأ سمع زوجها بطلباتها غير المتناهية[4] إلى أن تحمله على كسب المال الحرام، فتكون سببًا في دخوله النار والعياذ بالله.

---

١- دخله: العائد المادي الذي يحصل عليه من عمله.

٢- ابتلاء: اختبار (في المحن والشدائد).

٣- امتحان: اختبار (في النعم).

٤- غير المتناهية: التي لا تنتهي.

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ...﴾ [التحريم: ٦]. قيل: إن أسباء الإنسان إلى أهله فأبقاهم على جهلٍ ولم يُعرِّفهم بربهم، ولم يأمرهم بالصلاة ولم يحثهم[1] عليها، فهؤلاء الأهل إذا شردوا وانحرفوا فإن موقفهم يوم القيامة أن يقولوا لله تعالى: يا رب لا أدخل النار حتى أُدخل أبي قبلي؛ لأنه كان سبب شقائي. الأبوة مسؤولية -وكذلك الأمومة-، فكل إنسان عليه إرشاد بيته قبل أن يتطلَّع إلى هداية الآخرين، وكل إنسان لو قام بهداية أولاده وزوجته لكنا في حالٍ غير هذا الحال، فالإنسان يغضب للدنيا ولا يغضب إن انتهكت حرمةٌ من حرمات الله، ويغضب لأن الطعام غير جاهز ولكنه لا يغضب إذا رأى أولاده وبناته في وضعٍ لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ، ثم يقول: ماذا أفعل؟ الله يُصلحهم، وهو الأب، وهو الذي جعله الله أساس هذه الأسرة! ويسري هذا الأمر على الأم أيضاً..

والمال لا يُسَمَّى نعمةً إلا إذا أُنفق في طاعة الله، وإلا فهو ابتلاءٌ.

قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩﴾

طبعًا هذه الآية تضع الإنسان أمام سؤالٍ كبير: كيف نوفِّق بينها وبين قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٣﴾ الحجر. وقوله: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصافات]. وآياتٌ كثيرة تُبيِّن أن الله سبحانه وتعالى سيسأل عباده عن أدقِّ أعمالهم، وعن كل أعمالهم.

قال بعض العلماء: أحيانًا إذا أُوقِفَ[2] الإنسان وبقي أيامًا دون أن يُسأل يزداد ألمُه، فعَدَمُ سؤاله وعدم معرفته سببَ توقيفه هذا مما يزيد ألَمَه،

---

١- يحثهم: يشجعهم.

٢- أُوقِفَ: تم القبض عليه من قبل ولاة الأمر.

وقال ابن القيِّم: «هؤلاء الكفار ينتظرون وينتظرون وينتظرون إلى أن يُلِحُّوا على ربهم أن يسألهم وأن يُحاسبهم»، فهذا معنى.

والمعنى الثاني للآية: هو أن يوم القيامة مديد[١] فيه مراحل، فمرحلة فيها سؤال، وسؤال دقيق، وحساب دقيق، ومرحلة تنتهي فيها المحاكمة ويصدر الحكم القطعي[٢]، فالإنسان حينما يرتكب جريمةً يَسأله القاضي عن الدوافع[٣]، وعن الملابسات[٤] وإلى ما هنالك، وأما إذا اقتنع القاضي أنه قاتلٌ عمدًا[٥]، وليس هناك أسباب مخُفِّفة يُصدر حكمه بالإعدام، وحينما تُدرس ملفاته في أعلى محكمة (محكمة النقض) ويرى أن القاضي الذي حكم هذا الحكم مُصيبٌ[٦] في حكمه، يُصدَّق[٧] هذا الحكم، فإذا نقل هذا الملف إلى رئاسة الجمهورية وصُدِّق عليها، ثم انتقل هذا المجرم إلى تنفيذ حكم الإعدام قبل أن يُشنق فهل يسأل لماذا فعلت هذا؟ لا يُسأل، لقد انتهى السؤال، فالسؤال أثناء المحاكمة فقط، وأما السؤال في هذا الموقف فلا معنى له إطلاقًا، وهنا مرحلة التنفيذ فقط.

وقال بعض المفسرين: إن سؤالَ الله تعالى العبدَ يوم القيامة عن أعماله السابقة إنما سؤال توبيخ[٨] لا سؤال استَعلام[٩]، فليس: ماذا فعلت؟ بل:

---

١- مديد: طويل في الزمن.

٢- الحكم القطعي: هم فصل في موضوع الخصومة بحكم قاطع لا رجعة فيه.

٣- الدوافع: الأسباب.

٤- الملابسات: الظروف التي أحاطت بها من وقائع.

٥- عمداً: قصداً وبينة متعمدة.

٦- مُصيبٌ: أي كان رأيه صواباً ولم يخطئ.

٧- يُصدَّق: يتم إقراره نهائياً.

٨- توبيخ: لوم على خطأ أو تصرف بغية الردع أو الإصلاح.

٩- استعلام: طلب معرفة الأمر أوإيضاحه.

لماذا فعلت؟ والفرق بينهما كبير، فماذا فعلت؟ سؤال استعلام، ولكن لماذا فعلت؟ سؤال توبيخ، فعندما أوحى الله تعالى إلى النبي عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّ أحد أصحابه (حاطبُ بن أبي بلتعة) أرسل كتابًا إلى قريش مع إمرأة يقول فيه: «إنَّ مُحَمَّدًا سَيَغْزوكُم فَخُذُوا حِذْرَكُم»، وأرسل النبي عليه الصَّلاة والسَّلام سيِّدنا عليًّا مع صحابيٍّ آخر إلى مكانٍ اسمه الروضة بين مكة والمدينة، فأخذوا الكتاب من المرأة وجاؤوا به إلى النبي ﷺ، فقرأه، واستدعى حاطبًا، والآن النبي عليه الصَّلاة والسَّلام سيسأل حاطبًا عما فعل، أم لماذا فعل؟ «قَالَ لَهُ: يَا حَاطِبُ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟» [رواه البخاري ومسلم].

فهو لم يسأله سؤال استعلام؛ لأن الوحي أعلمه، ولكن سأله سؤال تأنيب.

ويوجد معنى آخر لهذه الآية قاله علماء آخرون: الإنسان حينما يرتكب جريمةً فظيعة يستحقُّ بها الإعدام، وعليه ذنوبٌ صغيرات كثيرة [كأن يكون عليه مخالفة سير أو سرقة]، فأعتقد أنه لا يُحاسب على تلك الذنوب الصغيرة؛ لأنه سيُعدم بعد قليل، ولكن في الآخرة سيُحاسب على كل صغيرة وكبيرة.

وهناك شيءٌ آخر: عندما يُخالف الإنسان الأنظمة فالشيء المألوف[1] أن يقول: لا أنا لم أُخالف، وأنا لم أكن في هذا الوقت في هذا المكان، وهذه مخالفة فيها افتراء[2]... أما الأجهزة الحديثة اليوم فإنها تُقدِّم لك صورة السيارة بشكلها ولونها وسرعتها، وبالمكان والزمان والوقت، فهذه

---

١- المألوف: المعتاد عرفاً.

٢- الإفتراء: الكذب واختلاقه (أي تأليفه من غير واقع).

الصورة مُسْكِتة لا يوجد معها سؤال ولا كلام، فهذه أدلَّةٌ دامغة[1]، ولعلَّ الله سبحانه وتعالى يعرض على الإنسان يوم القيامة أعماله كلَّها كشريط منذ أن خلقه وحتَّى توفَّاه حركة بحركة، فعلًا وتركًا، فهنا اقترف الفاحشة[2]، وهنا أكل المال الحرام، وهنا احتال على الناس، وهنا اعتدى على أعراضهم وأموالهم .. إلخ. قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء].

﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٢﴾.

المجرم ظاهر، ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ...﴾ [آل عمران:١٠١]، والمسلم المؤمن ظاهر ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة]. وجه أبيض متألق ينظر إلى الله عزَّ وجلَّ، وأما الكافر ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾ [عبس]. فالكافر وجهه مُكْفَهِرٌّ[6] مسودٌّ من الغبرة التي عليه. أحيانًا شخصان متشابهان يُقال لهما: من الناجح منكما؟ أما الناجح فمبتسم ومعه شهادته ومكتوب فيها بالقلم العريض ناجح، فإن السؤال هنا ليس له معنى، سبحان الله! وأما الراسب فهو واضح من وجهه، من انكسار بصره[7]، ومن قسمات وجهه[8].

---

١- دامغة: حاسمة قاطعة.

٢- الفاحشة: القبيح والشنيع من القول أو الفعل.

٣- نَّاضِرَةٌ: جميلة، حسنة، مشرقة.

٤- غَبَرَةٌ: من الغبار أو التراب.

٥- قَتَرَةٌ: ظلمة وسواد.

٦- مُكْفَهِرٌّ: مظلم، متجهم، مسود.

٧- انكسار بصره: تحول بصره إلى الأسفل نتيجة الهزيمة.

٨- قسمات وجهه: تقسيمات وملامح ومعالم وجهه.

أما المجرمون فيؤْخَذون بالنواصي والأقدام، والناصية شعر مقدمة الرأس، والرأس مكان تكريم الإنسان، فإذا جُرَّ الإنسان من شعر رأسه فهذه إهانةٌ ما بعدها إهانة، أما إذا جُرَّ من قدميه على رأسه فهذه إهانة أشد.

أكثر الناس في هذه الأيام لا حديث لهم عن الآخرة وعن الموت، ويتأففون[1] من ذلك، يقولون: دعك من هذا الحديث، أما إذا حدثته عن أسعار العملة، وعن البيوت، أو عن المطاعم والمقاهي والفيلات والشركات والتجارة والمركبات والرحلات... فتجد أن لعابه يسيل.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يرونها رأيَ العين، أي يرون جهنم والعياذ بالله...

يجب أن نعلم أن أي شيءٍ ورد في هذا القرآن وفي سنة النبي العدنانﷺ فإن هذا الشيء سوف نراه جميعًا رأي العين؛ لذلك مما ورد من تفاسير حول قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا [2] كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا [3] ﴿٧١﴾﴾ [مريم] أنه حتى المؤمنون يُطِلُّون على النار دون أن يتأثروا بوهجها[4] فتزدادُ سعادتهم في الجنة، أي: اعلم أيها المؤمن أنك لو لم تؤمن في الدنيا ولو لم تستقم لكان مكانك هنا في النار؛ ولأن المؤمن إذا رأى مكانه في النار فيما لو كان غير مؤمنٍ ستتضاعف سعادته لعلمه أن مثواه في الجنة.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]. الورود شيء، والدخول شيءٌ آخر، دخول النار عقاب، وأما ورودها فليس عقابًا، ولكن اتِّعاظ[5]، وقد

---

١- يتأففون: يتذمرون ويظهرون الضيق.

٢- وَارِدُهَا: آت من مكان بعيد إليها أو من فوقها أو جنبها.

٣- مَّقْضِيًّا: أي لازماً واجباً قضي فيه الحكم لا تراجع عنه.

٤- بوهجها: سطوع حرها وانتشارها.

٥- اتِّعاظ: نصح وتذكير بالعواقب.

يكـون مرورًا بجانبها أو مـن فوقها، وقد يرى هـؤلاء الذين ظلموهم في الدنيا، والله أعلم.

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

أي: بين جهنَّم وما فيها من شدة الحريق، وبين شرابٍ كالزيت المغلي في أعلى درجات حرارتها، فالإنسان حينما يضجر من شدة الحر، ومن لهيب النار، ومن عذاب جلده المُحترق.

فلو فرضنا أن بلدًا لها نظام خاص بالإجارات، بحيث إن مالك البيت لمجرَّد أن يطلب من المُستأجر أن يخرج فعليه أن يخـرج (وبلا إنذار)، فلو أن شـخصًا اسـتأجر بيتًا، وله دخلٌ كبير، وقد أنفق هذا الدخل على تزيين بيته المُستأجَر، غيَّر السـقف والجدران والأبواب.. إلخ، ومالكُ البيت في أيـة لحظة يمكـن أن يطلب منه الخروج، ولسـاكن هذا البيـت دارٌ أُخرى يملِكهـا، ولكنهـا في مكان آخر، وهـي خَرِبَةٌ[1]، بلا سـقف، وبلا نوافذ، وبـلا أبواب فهل يعدُّ من العقل فعلـه؟ أن يُنفق كل دخله على تزيين بيتٍ مُسـتأجَرٍ قد يُغادره في أية لحظة، وأن يُهمل بيته الأساسي الذي سيؤول[2] إليه شـاء أم أبى؟ هذا ما يفعله النـاس الآن، يريد كل شيء في الدنيا، يريد مالًا وقصرًا ومسبحًا، ويريد حديقة جميلة، ويريد مكانًا على البحر، ويريد أحدث مركبة، ولكن إلى متى؟ ما هي مكتسباته[3] من هذه الأشياء؟

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾

مقـام الله أنـه يُشرف على خلقـه، قال تعـالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعـد:٣٣]. وقال أيضًا: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ

---

١- خَرِبَةٌ: خالية، خاوية فيها عيوب.

٢- سيؤول: سيرجع ويعود.

٣- مكتسباته: ما تم تحصيله وجمعه وربحه.

مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ [1] لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ [الشعراء].

الله موجود، ومع كل مخلوق، ويكشف حقيقته ونواياه ومقاصده[2] وبواعثه[3] وأهدافه وصراعاته وأعماله وأقواله وما تخفي النفوس.

فقيامنا بالله سبحانه وتعالى، والإمدادُ منه، وهو سميعٌ عليم قريبٌ مجيبٌ، ولو تكَلَّمنا يسمعنا، وإن تَحَرَكنا يرانا، وإن سكتنا ووقفنا يعلم ما في أنفسِنا، فمقام الله عزَّ وجلَّ مقام الإشراف، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾

لماذا يخاف؟ لأن الله أودع[4] فيه الشهوات، وسمح له بطريق واحد، بقناة واحدة، وبطريقة واحدة لإنفاذ[5] هذه الشهوات، فإذا تطلَّعت نفسُه[6] إلى خلاف منهج الله عزَّ وجلَّ خاف وتذكر مقامَ الله أنَّه معه، وأنَّه يُراقبه، وأفضل إيمان الرجل أن يعلم أن الله معه حيث كان، والأصل أن الله أودع فينا الشهوات، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ [7] لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ

---

١- ٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ : بمعنى تواضع وتحلّ باللين والرأفة.

٢- مقاصده: اتجاهه وهدفه.

٣- بواعثه: أفكاره التي تقوده إلى إحداث عمل إرادي.

٤- أودع: وضع وضمن.

٥- لإنفاذ: لتنفيذ وإنجاز.

٦- تطلعت نفسه: تمنت ورغبت في أمر ما.

٧- زُيِّنَ : جعل أعمالهم حسنة في أعينهم.

وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ [١] مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ [٢] وَٱلۡأَنۡعَٰمِ [٣] وَٱلۡحَرۡثِ [٤] ذَٰلِكَ مَتَٰعُ [٥] ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ [٦] ﴿١٤﴾ [آل عمران].

شاءت حكمة الله أن يُودع الشهوات في الإنسان -حتى الأنبياء- من أجل أن نرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، ونرقى بها صابرين، ونرقى بها شاكرين، ونرقى بها إذا غضضنا طرفنا[٧] عن الحرام، ونرقى بها إذا نظرنا إلى ما أحل الله تعالى لنا، وإذا غضضنا الطرف عما لا يحل لنا نرقى صابرين، وإذا أخذنا المال الحلال نرقى شاكرين، وإذا كففنا أيدينا عن المال الحرام نرقى صابرين...

فالإنسان بلا شهوة لا يرقى عند الله، وكيف يرقى؟ وماذا يعمل؟ وماذا ينفق؟ الله عزَّ وجلَّ أودع فيه حُبَّ النساء، وسمح له بالزواج وأمره بغضِّ البصر، وأودع فيه حُبَّ المال، وسمح له بالكسب الحلال ومنعه من الكسب الحرام، وأودع فيه حُبَّ العلو في الأرض، وسمح له أن يعلو بطاعته، ولم يسمح له أن يعلو بمعصيته.

كل خواطر الإنسان عند الله معلومة، وكل نواياه معلومة، وكل دقائق نفسه معلومة، وكل خبايا نفسه[٨] معلومة، وكل أهدافه بالإضافة

---

١- ٱلۡمُقَنطَرَةِ: مال كثير.

٢- ٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ: الأحصنة المعلمة بعلامة خاصة، أو التي ترعى.

٣- ٱلۡأَنۡعَٰمِ: وهي الغنم والماعز والبقر والجمال.

٤- ٱلۡحَرۡثِ: الأرض التي تحرث.

٥- مَتَٰعُ: كل ما ينتفع به ويرغب في اقتنائه كالبيت والمال.

٦- حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ: المرجع أو المنقلب أو الملجأ الحسن.

٧- غضضنا طرفنا: صرفنا النظر وترك الأمر جانباً.

٨- خبايا نفسه: ما هو مخفي في نفس الإنسان أو ما يكنه من مشاعر وأحاسيس.

إلى أقواله وأعماله.

من أعظم العبادة أنك إذا تمنيتَ شيئًا مُحرمًا أو حدثتك نفسك بشيء لا يرضاه الله فتقول: إني أخاف الله ربَّ العالمين، فما الذي يمنع إنسانًا جالسًا في غرفته وإلى جانبه بيوت كثيرة وظهرت جارة له على الشرفة المقابلة مُتَبَذِّلة[٩] في ثيابها، ما الذي يمنعه أن ينظر إليها؟ لا يوجد قانون يمنعه، ولا يوجد توجيه حكومي، ولا يوجد شيء يمنع ذلك، فإذا غضَّ بصره عنها وأرخى الستارة يكون قد خاف مقام ربِّه، ومثال آخر: قال رجل لآخر: بِعني هذه الشاة وخذ ثمنها، قال له: إنها ليست لي، فقال له: قل لصاحبها إنها ماتت أو أكلها الذئب، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني فإني عنده صادقٌ أمين، **ولكن الله يراني**.

فالإنسان ينبغي أن يستحي من الله، فكلما ذكر أن الله معه وأنه يُراقبه يستحي منه، بل إن الإنسان يستحي أحيانًا من شخص مثله، فإذا زارك زائر ما فإنك ترتدي ثيابًا مرتبة، وتتكلم معه بكلمات مقبولة، وتجلس أمامه جلسة معقولة، فجلستك وحركتك وكلامك وثيابك نظيفة لأن هناك شخصًا يُراقبك، فكيف إذا كان الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُراقبك؟

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾

هاتان الجنتان لأصحاب الإحسان في الدنيا، وهما في الدرجات العلى من الجنان في الآخرة، لماذا هما جنتان؟

قال بعض المفسرين: الجنتان: جنةٌ للإنس وجنةٌ للجن؛ لأن الجن مكلَّفون[١٠] كالإنس.

---

٩- مُتَبَذِّلة: غير محتشمة الثياب.

١٠- مكلَّفون: عليهم واجبات وتكليفات شرعية، كالإنس.

وقال بعضهم: الجنتان مضاعفةٌ للثواب، كأن يقول لك: الساعة الإضافية لها أجر مُضاعف مثلًا، مكافأة مضاعفة، راتب مزدوج، فمن باب الإكرام مضاعفة الثواب.

وبعضهم قال: جنةٌ لهم، وجنةٌ لأزواجهم.

وقال بعضهم: جنتان إذا مكث[1] في الأولى تاق[2] إلى الثانية، وإذا مكث في الثانية تاق إلى الأولى، يقول لك: مقرٌّ صيفي، ومقرٌّ شتوي، مبالغة في الإكرام.

﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٩﴾.

الأفنان: أي الأشجار، لها جذوعٌ، ولها فروعٌ، ولها أغصانٌ وارفة[3] الظلال مزدانة[4] بالثمار، أشجار خضراء، وظلها كثيف.

﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥١﴾

العين تجري، فما أجمل الأشجار الملتفَّة حول أغصانها والينابيع تجري من تحتها، فأحيانًا ترى بستانًا جميلًا جدًّا ولكن لا يوجد فيه ماء جارٍ، وهناك ماء جارٍ بلا أشجار، ولكن إذا اجتمعت الأشجار مع الماء الذي يجري بينها، فهذا غايةٌ في الحسن والجمال.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٣﴾.

والفاكهة تعبير عن الإكرام، ومن كل أنواع الفواكه زوجان، نوعان.

فهذه الجنة هل يُستغنى عنها من أجل سنواتٍ معدوداتٍ في الدنيا مشحونةٍ[5] بالمشاكل والآلام؟! بربكم في أي سنٍّ يمكن أن تستقر؟ سنك

---

١- مكث: أقام.

٢- تاق: إشتاق.

٣- وارفة: شديدة الخضرة.

٤- مزدانة: متزينة.

٥- مشحونةٍ: مملوءة.

الآن أربعين سنة، فكم بقي؟ عشرون أو عشر سنوات، أو سنة واحدة أُخرى... والله أعلم، فهذه السنوات المعدودة المشحونة بالمتاعب والهموم والمشاكل هل تستحق أن نستغني عن الجنة بأكملها من أجلها؟! لا والله.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾.

الإستبرق: من أرفع أنواع الأقمشة، وهذه البطائن، فكيف بالظواهر؟ جنة عرضها السماوات والأرض، فكم طولها؟ إذا كان عرضها هكذا، فكم طولها إذًا؟

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾ [السجدة:١٧]. ولا يمكن أن تعلم نفس ما أخفي لها، فليس في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم، فمثلًا طائرة من أكبر أنواع الطائرات تتسع لمئات من الركاب، وهناك طائرة صغيرة للأطفال تُشبهها، فهذه اسمها طائرة ثمنها مئات ملايين الدولارات، وهذه طائرة ثمنها بضعة دولارات، فهل هناك ما يجمع بينهما سوى الاسم؟ وكذلك كافة النعم في الجنة!

في الحديث القدسيِّ قال الله ﷺ عن ربِّ العزَّة: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» [متفق عليه عن أبي هريرة].

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: أن ثمرها قريب منك تجنيه وتقطفه في أي وقت تريد.

أحيانًا ترى نخلة عليها تمر رائع، ولكنها تتطلَّب اختصاصيين يصعدون على النخل، وأحيانًا ترى الشجرة وفاكهتها في متناول يدك، شيء جميل جدًّا أن يكون الشيء أمامك، وفي متناول يدك.

﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

إن أجمل صفةٍ في المرأة ألا تنظر إلى غير زوجها، فتقصر الطرف[١] عليه، ولذلك لا يجوز في الإسلام أن تَصِفَ المرأة لزوجها نساءً أُخريات وكأنه يتخيلهن ويراهن، فالحجاب أصبح ليس له معنى، فإذا وصفت له امرأةً أُخرى وصفًا دقيقًا فكأنه ينظر إليها، وإذا وصف لها رجلًا صديقَه وصفًا دقيقًا فكأنها تنظر إليه، فربما تحوَّلَ عنها إلى غيرها، وربما تحوَّلتْ عنه إلى غيره، وعندئذٍ تنفصم[٢] العلاقة والمودَّة والرحمة بين الزوجين، وهذا يعتبر -حقيقةً- أحد أسباب الوفاق الزوجي في الإسلام: أن هذه المرأة ليس بإمكانها أن تقيم علاقة ما إلا مع زوجها، وبحسب منهج الله عزَّ وجلَّ، وأن هذا الزوج لا يُسمح له الشرع أن ينظر وأن يتكلَّم وأن يُقيم علاقة مع غير زوجته، وهذا أحد أهم أسباب السعادة.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾

كأنهن في حسنهن، وفي جمالهن، وفي لونهن، وفي قوامهن[٣] كالياقوت والمرجان.

قال العلماء: المرأة الصالحة في الدنيا التي عرفت ربَّها، واستقامت على أمره، وكانت مسلمةً مؤمنةً قانتةً[٤] تائبةً عابدةً ثيِّبًا[٥] كانت أو بكرًا[٦]... هذه المرأة الصالحة تغدو في الجنة حوراء[٧] من حور الجِنان. وبعض المفسرين قالوا: إن الحور العين في الجنة هُنَّ زوجات المؤمنين بالذات،

---

١- تقصر الطرف: لا ينظرن إلا ناحية (أزواجهم).

٢- تنفصم: تنقطع.

٣- قوامهن: قامتهن وحسن جسمهم وطولهم.

٤- قانتةً: متعبدة ومطيعة لله تعالى.

٥- ثيِّبًا: التي فقدت زوجها بموت أو طلاق.

٦- بكرًا: عزباء.

٧- حوراء: المرأة البيضاء الرقيقة الناعمة.

ولكن الله سبحانه وتعالى يُعطيهن جمالًا فائقًا ليس لهن مثله في الدنيا، وقال بعضهم: إن الحور العين مخلوقات يخلقها الله في الجنة، وبعض العلماء يُميز فيقول: إن الحور العين التي هي زوجةُ المؤمن في الدنيا أرقى للمؤمن من حور عين الجنة التي لم تُخْلَق في الدنيا، لماذا؟ لأن المرأة المؤمنة التي عرفت ربَّها في الدنيا، وابتعدت عن الحرام، وقصرت طرفها على زوجها، وأحسنت تبعُّل زوجها، وأحسنت تربية أولادها، وصلَّت خمسها[1]، وصامت شهرها[2]، وحفظت نفسها، وأطاعت الله عزَّ وجلَّ، فهذه امرأةٌ لها عند الله مكانةٌ كبرى، فهذه المرأة لها إقبالٌ على الله تعالى، ولها اتصالٌ به، فهي تكون في الجنة بأروع شكل وغير التي خلقها الله عليه في الدنيا.

أي: إن الحور العين من الزوجات المؤمنات في الدنيا ستكون حوريات في أعلى مستوى في الآخرة، وخصوصًا في نظر أزواجهن.

ثم يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

الإحسان: مرتبةٌ تحدَّث عنها النبي ﷺ، وهي فوق الإيمان، فهناك إسلام، ثم إيمان، ثم إحسان، فالإسلام: أن تنقاد لله تعالى، وتُسَلِّم أمرك إليه تطبيقًا وتنفيذًا، والإيمان: أن تُقبل عليه بقلبك وعقلك، والإحسان: أن تعبده كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: هل جزاء الإحسان الذي فعلوه في الدنيا إلا الإحسان إليهم في الجنة؟ الله عزَّ وجلَّ شكور[3] ولا تضيع عنده الأعمال.

---

١- صلت خمسها: قامت بالصلوات الخمس المفروضة.

٢- صامت شهرها: قامت بصيام شهر رمضان المبارك.

٣- الشكور: من أسماء الله الحسنى، ومعناه مبالغة من الشاكر (أي كثير الشكر).

فهُـم وظَّفـوا[1] كلَّ أوقاتهـم، وأنفسـهم، وأموالهـم، وطاقاتهـم، وخبراتهـم، وكل إمكاناتهم في الحق وللحق، فلو قيل لأحدهم: كم الزكاة سـيدي؟ فقال: عندنا أم عندكـم؟ قال له: كم عندنا، وكـم عندكم؟ وما عندنا ومـا عندكم؟ فقال: عندكم اثنان ونصف بالمئـة، وأما عندنا فالعبد وماله لسيده، أي لله سبحانه وتعالى.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾

إذًا فهنـاك جنات، وهاتين الجنتين في هذه الآيات من الدرجة الأولى وهـي أقل من الدرجة الممتازة، وهما لأصحاب اليمين، وهؤلاء الذين هم دون مرتبة الإحسـان، هاتان الجنتان لمن بلغ مرتبـة الإيمان، أي: إنه أطاع الله عزَّ وجلَّ واسـتغرق في المباحات، ولم يعصِ الله، فهو اسـتقام على أمر ربِّه واتَّبع منهجه، ولكن لم يبع نفسـه لله كليًّا -كالذين أحسـنوا بعباداتهم وطاعاتهـم لله-، فهو الذي أخطأ، ثم تاب وعمل صالحًا، ثم اهتدى، والله أعلم..

مُدْهَامَّتَـان: أي اللون الأخضر في هاتين الجنتين داكن، أي: مائل إلى السواد.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾

هنـاك عينـان تجريان، وهنا عينـان نَضَّاختان، أي: فوارتـان بالماء لا تنقصان.

﴿فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

هنـاك من كل فاكهةٍ زوجان، وهنا الجنة مختلفة، فتوجد وجبة بأنواع محددة وليست مفتوحة.

---

١- وظَّفوا: استثمروا عملهم.

﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧١﴾

أي: فيهما حور نساء خيرات الأخلاق، حسان الوجوه.

﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٣﴾

هناك حوريات القصور، وهنا حوريات ملتزمات في الخيام بانتظار أزواجهن.

﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٥﴾

وهن في هذا كحور (أهل الإحسان) لم يمسسهن أحد من قبل.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٧﴾

رَفرَفٍ: أي على بسط راقية جدًّا، فهناك البطائن من إستبرق، وهنا متكئين[1] على بسطٍ وسجاجيد ناعمةٍ كالرَّفرف ترفُّ بصاحبها، أي وثيرة بحيث تغوص القدم في هذه السجَّادة.

عَبْقَرِيٍّ: أي كل شيء فائق الصنعة، ويُقال: هذا مشتق من وادي عبقر؛ لأن العرب كانوا يعتقدون في الجاهلية أن الجنَّ تسكنه، فإذا تجاوز إنسان الحدود الطبيعية يُقال له: عبقريٌّ، والله أعلم.

ثم يختم ربُّنا سبحانه وتعالى السورة بهذه الآية فيقول:

﴿تَبَارَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾

تبارك: أي عظُمَ خيرُه، والبركةُ أن يخلق الله من الشيءِ القليل الشيءَ الكثير، فكيف ذلك؟ أنت جئت إلى الدنيا وعشت ستين سنة مثلًا، وفي الأربعين تُبت إلى الله عزَّ وجلَّ، وعشت عشرين سنة بالطاعة، والتوبة، والصلوات، والعمل الصالح، وإعمار الأرض كما أمر الله تعالى... إلخ،

---

١ – متكئين: قعود مستندين.

فعشرون سنة بالطاعة يقابلها عند الله جنة تدوم فيها إلى الأبد؟ فسبحان الله ما أكرمه!

فالله سبحانه وتعالى عظيم بقدر ما هو كريم، فمثلًا: يمكن أن تعيش مع شخص تحترمه احترامًا كبيرًا ولكنك لا تحبه، ومن الممكن أن تعيش مع شخص تحبه حبًّا جمًّا ولكنك لا تحترمه، لأنه جاهل لكنه قريب منك، ولكن أن تجمع بين الاحترام اللانهائي، والمحبة اللانهائية فهذا شيء في الدنيا غير موجود، أو أنه نادر جدًّا، وربُّنا سبحانه وتعالى أسماؤه الحُسنى كثيرة جدًّا، فقسم من أسمائه ينطوي تحت اسم الجلال: القوي، والجبَّار، والمتكبِّر، والقهَّار، والمتين...، وقسم من أسمائه ينطوي تحت اسم الجمال (الإكرام): الرحمن، والرحيم، واللطيف، والرؤوف...، وكل أسماء الله حُسنى ومطلقة ولا متناهية.

والحمد لله ربِّ العالمين.

*****

# الخاتمة

إنَّ كل إنسان أوتي عقلًا يُحاسب به، وسوف يُسأل عن الفترة التي يقضيها على ظهر الأرض، فمن أحسن العمل نجا، ومن أساء هوى[١]، ولا يظلم ربُّك أحدًا، ويجب أن نعلم أن الله لم يُحرِّم التنعم والغنى على عباده الصالحين، ولم يختص بهما العباد المجرمين، كما أن دراسة الأرض والسماء ليست حكرًا[٢] على الغربيين أو الكفار والمشركين، بل يجب على الجميع التفكُّر ودراسة هذا الكون، فهو ينبوع يزيد الإيمان ازدهارًا، ويُعرِّف الناس بربِّهم معرفة حسنة، والقرآن الكريم حضَّ المسلمين على العلم والعمل والتفكير الذكيِّ في ملكوت[٣] الله..

الإنسان -عادة- حريص على مصلحته، ويحسن الجري وراء حاجته، ولكن هذا السعي قد يتورم[٤] ويربو[٥] فلا يعرف إلا ما يريد، ولا يبقي لله مكانٌ في ضميره ولا في سلوكه!

والحضارة الحديثة صنعت أجيالًا من هذا القبيل[٦]، فارتبطت بهذه الأرض فلا تبصر وراءها شيئًا، بل لقد استبعدت ذكر الآخرة عن حسابها، وجعلت التفكير فيها أو الحديث عنها لونًا من خرافة لا يخوض

---

١- هوى: وقع في حفرة سحيقة، وهنا بمعنى هلك.

٢- حكرًا: خاصة.

٣- ملكوت: ملك الله من الكون والمخلوقات وغيرها.

٤- يتورم: ينتفخ.

٥- يربو: ينمو ويزيد.

٦- القبيل: النوع أو الصنف.

فيه العقلاء أو المثقفون، ولا يخطر لهم ببال.

على أن الحياة الدنيا ليست شرًّا محضًا[1]، فقد يكون التمكين[2] فيها من رحمة الله، كما قال الله تعالى بعد ما منح سيِّدنا يوسف عليه السلام أرفع المناصب: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ[3] مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف]، وإن هذا التمكين قد يكون دعمًا للحق وعونًا للضعاف وسندًا للمروءة[4].

المؤمن إنسان يعرف ربَّه، ويحيا له، ويستعد للقائه، ويعلم أن الموت لا يقطع خط الحياة، فإنَّ هذا الخط لا يقطعه شيء، وإن الموت نقطة تحول من حياة إلى أُخرى فقط.

فيجب على الإنسان أن يُدرك أن الله خلق الإنسان من صلصال، وحياته الإجمالية هي على مراحل، بدءًا من خلقه في الدنيا من نطفة، إلى أن صار إنسانًا مكلفًا، ثم يتعرَّض للامتحان في الحياة الدنيا، وهذه مرحلة تُعتبر قصيرةً بالنسبة للحياة الإجمالية المُقدَّرة لبني البشر؛ حيث إن بعد هذه الحياة التي نعيشها في الدنيا تأتي:

١. مرحلة البرزخ: وهي المرحلة التي تلي الموت، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]، ولا يعلم مدَّتها إلَّا الله سبحانه، ولكن الإنسان لا يُحس بها.

٢. وبعدها تأتي مرحلة يوم القيامة: حيث يُبعث الناس جميعًا من قبورهم، ويتوجهون إلى أرض المحشر.

---

١- محضاً: شراً خالصاً أي فقط.

٢- التمكين: جعله متمكناً من النجاح.

٣- يَتَبَوَّأُ: تسلم زمام أو منصب مهماً وهنا قد تكون بمعنى ينزل في الأرض ويقيم ويتصرف فيها.

٤- المروءة: خصله أخلاقية فيها بذل للمعروف وكف الأذى وصدق اللسان.

٣. ثم يوم الحشر، (أي: الوقوف بين يدي الله سبحانه).

٤. ومن ثَم مرحلة الحساب، وقد قيل: إن مدَّتها خمسون ألف سنة مما نَعُدُّ في الدنيا)، وهذه المدَّة يُحِسُّ بطول زمانها الكفار والظالمون فقط، أما المؤمنون والمحسنون فلا يُحِسُّون بها.

٥. ومن ثَم تأتي مرحلة الميزان، حيث توزن أعمال الإنسان التي عملها في الدنيا بميزان دقيق لا يعرف ماهيَّته[١] إلا الله سبحانه وتعالى، فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته فله الجنة إن شاء الله، وأما من كانت سيئاته أكثر من حسناته فيسأل عن شفيع[٢] له ليزيد من حسناته فلو قبلها الله تعالى يُدخله الله برحمته إلى الجنة إذا كان من المؤمنين الموحدين.

٦. ثم تأتي مرحلة المشي على الصراط[٣]، وهذا الوقت ستكون مدَّته يسيرةً وكلمح البصر على المؤمنين، وتكون مدَّته عسيرةً على الكافرين، فمنهم من يهوي إلى الدرك[٤] الأسفل من النار ويُخلَّد فيها، وقد يسقط فيها بعض العاصين من المسلمين بسبب المعاصي فيبقون في النار ما شاء الله، ثم يخرجهم الله عزَّ وجلَّ برحمته، وبسبب موتهم على التوحيد والإسلام، أو بشفاعة من يأذن الله سبحانه لهم بالشفاعة.

٧. ومن ثم تأتي مرحلة الحياة الأبدية في الجنة للمؤمنين، وهي في حسنها على درجات، يقيم فيها كلٌّ على حسب ومقدار أعماله

---

١- ماهيَّته: حقيقته وطبيعته وصفاته الجوهرية.

٢- شفيع: صاحب الوساطة لشخص أو أمر وهنا سأل الله له العفو والتجاوز عن الذنب.

٣- الصراط: الطريق، السبيل.

٤- الدرك: المنزلة السفلى في جهنم.

الصالحة في الدنيا، وما يجب التأكيد والتركيز عليه في حياتنا الدنيوية هو العمل لهذه المرحلة أي للحياة الأبدية الأخروية، والتي كثيرًا ما نسهو عنها، ونسأل الله العافية.

ويجب أن نعلم أن الحياة في الدنيا لن تتوقف على:

- النساء والزواج والإنجاب والبيت والأولاد أو
- المال والمناصب والجاه والسلطة أو
- الوالدين والأصحاب والعشيرة والمجتمع أو
- السفر والسياحة واللهو واللعب.

ومن رحمة الله سبحانه أنه ما أخذ من عبده شيئًا إلا وعوَّضه خيرًا منه، ويجب العلم يقينًا بأن الدنيا دار امتحان وابتلاء، فلنحسن دراسة أحوالنا وتشخيص مشاكلنا فالحلول موجودة في القرآن الكريم، وفي سنة نبيه المصطفى ﷺ، وبعد ذلك يجب العمل بإخلاص وليس بالقول أو التنظير[1] والتكفير، بل يجب ملء قلبك بالإيمان والرضا وحسن الظن بالله، واجعل وقتك في طلب العلم والعمل في كل ما ينفع نفسك وعائلتك ومجتمعك ووطنك وأمتك، واجعل الصبر زادك[2] والقرآن صاحبك.

اللهم إنا نسألك العفو والعافية

والحمد لله ربِّ العالمين.

*****

١- التنظير: وضع نظريات وتوقعات لا يمكن تطبيقها.

٢- واجعل الصبر زادك: ما يكتسبه الإنسان من خير أو شر ليستعمله لاحقاً.

# المراجع :


١- الآيات القرآنية من «مصحف المدينة المنورة» طباعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٢- أغلب شرح الكلمات وهداية الايات من كتاب «أيسر التفاسير لكلام العلى القدير» للشيخ أبوبكر الجزائري رحمه الله .

٣- التفسير الموضوعي للسوره من كتاب «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ محمد الغزالي رحمة الله .

٤- شرح تفصيلي للسورة بتصرف من «خواطر ومحاضرات الدكتور محمد راتب النابلسي حفظه الله».

# الفهرس


إهداء ..... ٥

تمهيد ..... ٧

مقدمة ..... ٩

سورة الرحمن: آياتها ..... ١٩

تسميتها ..... ١٩

سبب نزولها ..... ١٩

فضلها ..... ٢٠

**السورة: النص ومعاني الكلمات مع هداية الأيات ..... ٢٢-٢٩**

**التفسير الموضوعي لسورة الملك للشيخ محمد الغزالي ..... ٣١**

**من خواطر الدكتور محمد راتب النابلسى ..... ٣٧**

الخاتمة ..... ٨٩

المراجع ..... ٩٣

الفهرس ..... ٩٥